ثمار البلّوط

قصص

شاكر الأنباري

منشورات الصوت - دانمارك
الطبعة الاولى ١٩٨٩ م

الفتاة والخنفساء

لم يبدأ اهتمامي بجيراننا الجدد هذا اليوم ، بل منذ سنة تقريبا . ذلك الوقت ، كانت ارضهم خرابا ً ، مأوى الحمير السائبة وكلاب الليل ، لا يجد قاطنو شارعنا أي حرج من رمي نفاياتهم فيها . ماداخلني اليقين مطلقاً بان ذلك الخراب سيمتلك يوما اية اهمية لي أو لجاسم ، أبن عمي الساكن معي في البيت . لكن ما أن رأيت الارض تُحفر ، الحصى والصخور تُجلب ، العمال يؤتى بهم ، حتى فهمت ان دارا ستشاد في الجوار ، وان عائلة مجهولة الهوية ستحل في شارعنا بعد أشهر .

ولكي لا يفوتني مرأى القادمين الجدد ، المُنتظرين على مدار اشهر طويلة ، قضيت عصري كله رقيبا للبيت ، لا صوت يفوتني ولا طبطبة اقدام ، لا رأس امرأة ولا مصدر نأمة . كان الشئ الأبرز الكاشف عن وجود حياة في الدار ، تنورهم الذي يطلق طائره الوهمي الى السماء . أرسلت بصري فيه ، حلّقتُ معه في سماء الوهم ، جرّني إثره وألقاني في حشود من نساء وفتيات ، حشود لم أميّز سماتها ، مخبأة وراء سُتر من الصخور والملاط .

لقد وصلوا صباحا ً ، قدِموا مع أشعة الشمس بسيارتهم المعبأة بالاثاث ، رايتهم وانا في طزيقي الى المدرسة ، وكان أثاثهم غير مألوف ، لا في شارعنا ولا في البيت . فمن خزانات عريضة ، الى كراس من الخشب أو الحديد ، الأرائك بانواعها منشاة وغير منشاة ، أدواة مطبخ معدنية لها التماعات كوكبية ، قرقعة وضوضاء شهدهما صباح شارعنا لأول مرة ، ورافقتاني طيلة مكوثي في المدرسة .

كان تنورهم مركونا في الزاوية ، تجمع حوله بضعة أشخاص ، يتحدثون عن العجين وتراب الحديقة وزراعة الاشجار والمخضرات . انهم

يحلمون برؤية بيتهم مظللا ببرتقال متطاول وأثل وحور ، مماشيهم محفوفة بالورود والرياحين والآس ، ثم عرجوا بكلامهم ، أو احلامهم ربما ، الى شخصيات مجهولة ، مات بعضها قبل فيضان الفرات وبعضها الآخر لمّا يزل على قيد الحياة . كل ذلك سمعته خلل وقفتي في الشباك .

شاردا في الدخان ، محلقا في سماء الوهم ، ألفاني رأس فتاتهم المستطلع ، قمر مزنّر بهالة ، وجه ابيض وقماشة بيضاء ، راحت تستجلي بخفة وتوجس . في البدء ، تطلعتْ الى الناحية الثانية من بيتهم ، ثم باستدارة بطيئة عطفت وجهها الينا ، فحلّتْ اللحظة المنتظرة . عيناها بعيني وجهها يقابل وجهي ، ابتسامتي الملساء كالثلج وبشرتها الخالية من التعابير . تجاهلتني كما لو كنت طائر وهم آخر فزّ من النافذة على مهل ، أو طابوقة ملقاة تحت جدار خرب ، نعم تجاهلتني أنا وشباكي وثلوجي . كانت حديقتنا الشئ الوحيد المدهش ، الوحيد الجدير بالاهتمام . تسلقت اشجار اليوكالبتوس حتى الورقة الاخيرة ، دسّتْ نفسها بين الطابوق ، حشرت انفها في الممرات المتربة ، توقفت عند خلائنا المشاد في الزاوية المقابلة ، وبنظرة فاحصة قلّبتْ ، دون رحمة ، أرض حديقتنا ، بصبارها وثيلها وطماطمها الخالي من الثمار . ثم ، كما ظهرت بغتة ، غابت بغتة ايضا ، بادئة حديثا مخمليا مع امرأة اخرى . كان حديثها ، لحلاوة نبراته ، يرتفع مع الدخان معانقا طيور الغروب وغباره الذهبي ، و ينخفض كي يندغم بوريقات العشب وطراوة التراب .

– هل ترى احدا ؟

– انهم جيراننا الجدد .

– أعندهم فتيات ؟

– رأيت واحدة . وجهها مدور وشفتاها رمّان .

أظلم بيتنا ، عتمة في زوايا السياج ، خيوط سود نُسجت

حول ورق اليوكالبتوس وأشواك الصبار ، في السماء خلية من الطيور ، سنونو وغربان ونوارس وعصافير ، عادت للتو الى المدينة . بيتنا المظلم غرفتان ، حمام ومطبخ مهملان ، أسس شادها والدي قبل تركه المدينة لأنه لم يشأ حَشَر حياته في علبة . أبرز ما في بيتنا أشجاره ، فهي تحتل فضاء واسعا من سماء شارعنا وتظلل حديقة الجيران الأمامية . ولشجراته الوارفة ، صديقات صبوتي ، سميته مرة ، بيت اليوكالبتوس ، الا أن التسمية لم تعجب جاسم ودرج على وصفه بالمقبرة .

في الضوء المعتم ، السائل على حافة النافذة ، وقفت بانتظارها ، فقد راودني احساس عميق بان تلك الفتاة ستظهر لي من خلف السياج . لقد اكملت خبزها ، دخانها همد منذ حين وأريج خبزها شاع وسط الحديقة كأنه نور ، وهاهو الشارع قد لاذ الى خباياه ، تَركَنا المارة لوحدنا ، وأخذتُ ابتكر اغرب الوسائل للقائها : قرب شجرة اليوكالبتوس نجتمع معا بعد نوم اهلها ، في المكان الذي وقفت فيه ذات يوم يتاح لي فرصة فريدة لتناول يدها ، مصّ شفتيها ، مداعبة خوخها ورمانها . في الغرفة جلس جاسم يقرأ ، في الشارع هامتْ دواب من فسحة الى فسحة ومن ظلمة الى أخرى ، وبقيت أنا في الأحلام نفسها ، الأحلام الغازية بقسوة ، المتشبثة بي منذ ان حلّوا . لو ان امي هنا لاختلفت الأمر ، كل ما علي القيام به ، الوقوف جنب التنور ومحادثتها ، ستبارك امي لقاءنا وتكتمه عن الجيران . لكن امي غادرت ذات يوم ولم تترك لي الا الصخور ورماد التنور وذكرياتها مع جروة .

- مساء الخير .

لا أحد يستطيع اقناعي بان ذلك الصوت كان صوتي ، فمفاجأتها اياي لم تدع لي حيزا للتأمل ، هل عرفت بانتظاري لها؟ ما لتلك الورقة الناشفة التي يسمونها الحنجرة قد تحركت اخيرا . ظلت متشبثة في تحديقها ، فعصفت عيناها بكل شجاعتي ، وظننت انني غارق

في خضم وهم ، لزوجة غروب صيفي لا احد يجزم بما يجري فيه . لم ترد علي وأفلتْ بعد حين ، غاب ذلك القمر المزنّر بهالة الضياء ، وحمل الليل خفة اقدامها منسابة على ارض الحديقة واسمنت الممرات .

– اظنني سمعت صوتا قبل قليل .

– حقا ؟

– مع من تكلمت ؟

فرحت ، فاوهامي كاذبة وشجاعتي لم تخني ، صوتي صريحا كان مثلما الصراصير الليلية ونقيق الضفادع ، حقيقة واقعة تجسّدتْ لأبنة الجيران وكان الليل والاشجار ورماد امي الشهود . اجبت مبتسما :

– مع نفسي .

وأخرجت قلمي وسجلت على الطابوقة الصفراء ، يسار الشباك ، بضع كلمات : اسم الفتاة ، وتاريخ أول تحية تلقتها مني ، حسناء شارعنا ، غزالة ليلي المعتم ، نخلة أرضنا المقفرة التي سأرقاها ذات يوم .

* * * *

لم اعد أميز الورق من الحجر ، الشجر من الجدران ، الثيل والزهور البرية ، امتزجت بالليل وتوحدت مع الاغناني القادمة من غرفة جاسم . انه سئم مثلي ، كلانا متوحد ، هو مع العتابا والابوذية والحداء ، وانا مع جديدي ، مغامرة الصبّوة ، هواي ، كلانا نعوم في القلق ، ورتابة الحياة ، البكلوريا ، العشق ، ذؤابات نخيل القرية ، ورق وأقلام ، أي بصيص ستدخل ابنة الثراء الى قلبي ؟ من بين أعشاب الحديقة نقّتْ ضفدعة ، وفي الشارع خطفتْ امرأة نفسها على عجل ، هي جروة ، بائعة القصب ، صديقة أمي ، أو ، بائعة الحليب لاغنياء شارعنا ان كان ثمة اغنياء فيه . لا استطيع التمييز ، فالمصباح مكسور ، قال جاسم انه رأى

حميدا سائق التاكسي يقدمُ على كسره ، لماذا ؟ ليتسلل ليلا الى زوجة عامل الصخر ، وشعرت بحاجة الى المياه فشمّرت بيجامتي وفتحت صنبورنا الوحيد ، هاهي البرودة تنساب على روحي وتغسل بثور وجهي ، لزوجة الغبار الكوني تتساقط عني لتنحل في الثيل النامي ، مياها آسنة وقشورا ميتة ، وسرعان ما شاركني جاسم لذتي ، مائي الدافق ، فهو يجلب له ذكرياته النهرية وسماواته الأولى . لقد ابتللنا مثل الصفادع .

- هل تأتي الى المدينة؟
- كلا ، سأقرأ .
- في السينما يعرضون الليلة فلما هنديا .
- سنرسب في البكالوريا ان بقينا هكذا .
- انا ذاهب .

تلاشت حركة الدرّاجة ، امتصها شارعنا كأمتصاصه للاسرار والفضائح ، ودبّتْ وراء السياج حركة أخرى ، حركة لها دفق انساني جَلَتْ عن جو المقابر وحشته ، وأزاحت من الروح القلق والوحدة . مدّ الجيران بسطهم في الحديقة الأمامية وأحضروا صحونهم وملاعقهم ، جلسوا في ضوء الفلوروسين الساطع الذي أناروه قبل لحظات ، الضوء الذي لا ضوء في المكان سواه ، كل يسيل على وريقات اليوكالبتوس وأعشاب الحديقة ، قبضان أشعته كشفت تنور أمي ايضا وبعضا من طابوق الذكريات . وكما لو كنت فراشة صيف ، هائمة ، جذبني ضؤوهم ، حرارتهم ، همساتهم ، دفئهم ، الصوت المخملي المرتفع الى النجوم والمنخفض الى سيقان العشب جذبني الى النقطة الأقرب من مجلسهم . السور فصل بيننا ، فوق رأسي إضمامات أغصان ، نجوم ، سماء صيف عارية ، وتحت اقدامي ، طين الحديقة البارد ، النمل ، اوراق خريف ماض رأتها أمي ذات صباح . كان الملاط تحت اظافري ، وهاهي التوءات الصخرية تنغرز في خدي الأيسر ، وثمت ، رجل يقود

الحديث عند جيراننا ، لمن يوجه حديثه ، لا ادري ، ربما للاسرة كلها . كانت الهموم تتدفق من فيه ، انه يمتلك متجرا للبضائع ، ومن احلامه القادمة ، التفتيش عن متجر ملائم آخر ، وَلوْلَ طفل صغير وتحاورتْ نسوة ، وذاب حلم الرجل في غيوم من الذكريات . لقد نزحوا الى المدينة قبل سنين ، وكادت أن تصبح المسميات ، كالتبن والدريس والسنبل ، الطلع ، قربة ماء ، الحشيش ، القطاف ، مسميات عالم آخر غير الذي يعيشون فيه . ظل صوت كدرية أشد الاصوات رقة وعمقا وحضوراً ، تضحك فتتكسر اغصان اليوكالبتوس ، يتموج الهواء بشميم خبز برّي وخزامى ، فأود لو اقتحم السور وأجلس قربها ، أضيع في سواد عينيها مثلما تضيع عيناي الآن في مزاغل الصخور وحول المراحيض وعلى حافات الظلال . كانت الموجودات هادئة من حولي ، البيت والحديقة والشارع ، السماء أدْلَتْ نجومها بخيوط من فضة ، وظلمة الصخور جذبتني الى بقعة ضوئية صغيرة ، حسبت الضوءَ حبحبةً والظلمةَ فضاء . أو ، وهجاً شاطحاً من الفلوروسين ، لكنني حين تتبعت ظنوني الفيتها ثقبا ، ثقباً ضئيلا منحشراً بين صخرتين .

كيف أمكن لثقب ان يبعث الرهبة في القلب ، لاسيما وأن الظلمة تخفيني كأبرة في قش ، وجارنا الآخر في سريره ، جاسم بعيد وانا وحدي ؟ دسست عيني في الثقب ، نفذت عبر الجدار كانني شبح في مقبرة او افعى متلصصة ، وكان التاجر على كرسيه الحديد ، النسوة وكالعادة متراصات حول رب البيت وكدرية اعطتني ظهرها . الرب هو زوج الخنفساء كما أخبرني جاسم ، رأسه أصلع اخفاه عن الأعين بطاقية بيضاء ، الأم ، قال عنها انها تؤكل ، تواجه ثقبي الآن ، أمامها ماعون من البطيخ تتناول منه على مهل وتستمع :

– قال أحمد انه سيزورنا في التاسعة .

– الساعة الآن تجاوزت التاسعة .

- كيف خالتي ؟

وجّه الرجل سؤاله الى كدرية فأزّتْ اشرطة الكرسي ، وقامت الخنفساء من مجلسها ثم دخلت البيت .

- لم تزل تعاني من آلالام الظهر ، قالت انها ستسافر الى القرية علّها تجد من يعالجها بالكيّ . انها لاتصدق احاديث الاطباء .

ملتُ على جانبي الايسر ، فقد أنهكني الوقوف ، فما كان من يدي الا ان ترتطم بباب المراحيض ، سكون بيتنا هوى من حالق ، هَوتْ كواكب في طرف السماء البعيد و وبدأتُ اسمع خطى المارة في شارعنا فاتخذت هيئة من يتبول وتمنيت ان يمر الامر بسلام ولم يغب عن بالي اطلالة شخص من الحافة . قررت المغادرة ، خطوت بحذر خطوة واحدة ثم وقفت ثانية ، لقد انعطف الحديث الى شجرة اليوكالبتوس التي قالت العجوز انها ستملأ المكان ظلا غير مرغوب فيه خصوصا عندما يحل الشتاء . انتظرت أن تفتح القوقعة وتُبرزُ ما في جوفها ، رأى جيراننا فيّ.. وجاسم ، فلم تفعلْ ، فغادرت .

بالتأكيد ، أنني لن أخبر احدا عما رأيت أو سمعت أو اكتشفت ، لن اشيع الى شارعنا ماخفي عنه ، سيظل جاسم جاهلا بأن النبرة الرفيعة الممطوطة كرغيف خبز ، هي للخنفساء ، وان الام تحمل نمشا خفيفا على الفخذين ، لن تعرف جروة بائعة القصب وكذلك زوجة عامل الصخر بمشاريع رب البيت لتحويل الشارع الى جنة عدن كما وصف مستقبله . انا بحاجة ماسة الى ثقوب اضافية ، هكذا اخبرت نفسي عندما سمعتهم جالسين عصرا للحديث في الحديقة الخلفية ، وبعد نهار شاق ، امضيت شقه الاكبر بالحديث مع طلاب صفي ، تجولت في ساحة الخزان الكبير ، التقيت سودة في دكانها واعطتني نقودا لأوصلها الى امي ثمن سمنة ، فوجئت ، بعد رجوعي البيت ، بوجود ورقة على مقبض باب غرفتي ، كتب فيها جاسم : سافرت الى القرية وساعود غداً . ملاحظة

اسفل الورقة تقول : كرهت ابنة القحبة هذه ، ويعني المدينة . لن انسى الرعب الذي عشته قبل سنة ، حيث تركني جاسم في ليلة مثل هذه حين ماتت جدته ، لكن بيتنا ، ليس كما الآن ، كان محاطا بالكلاب والحمير ، تعوي قربه ثعالب البر وتزّمر فيه اشباح المقابر ، ولكي ازيح خيالات سنة ماضية سارعت بفتح الباب وانارة المصباح . انجلتْ عن الممر عتمته وعمت الجدران أشعة صفراء ، والفيت نفسي وسط فوضاي ، لحافي العتيق وبقايا جرائد قديمة ، حشية وكتب وسخام فانوس امي البائن على الملاط ، يواجهني بيتها المخبأ وسط قوقعة ، هل لاحظت الأم ما يدور حولها ؟

– سأجلب لك ماسورة المياه .

انه صوت الخنفساء ، اعقبته لحظة من الصمت ثم هاهي كدرية اخيرا ، بعد يوم كامل من الغياب ، قرن من الثواني امضيته دون رؤيتها ، قرن من القلق عشته وانا ارقب بيتها ، بابها ، رأيت خلاله ، دخان التنور ، نمش الأم ، انواعا لاتحصى من الالبسة الداخلية .

– والمكنسة ايضا .

انها هناك ، غنت بصوت خفيض ، يعسوبة راعشة ويَشبٌ يعلن لي عن حضوره ، حياة تنبثق في جدران صماء ، في صخور من مقالع نائية ، فسارعت الى رؤيتها ، اطفأت النور وتسلقت نافذتي . رأيتها ، نعم ، طائري الدخاني ، ترتدي ثوبا أحمر شف عن كنوزها ، ساقيها البضين وعجيزتها الضخمة ، بياضها وعطرها ، كانت منحنية على المكنسة يفصلني عنها قضبان نافذتي ، سور السياج ، ظلال من اشباح اجدادها وسيوف عتيقة وتقوّلات شارع منزو في طرف مهمل من المدينة . هل يتاح لي منظر مثل هذا لو ان جاسم موجود؟ نسيت وحدتي ، خوفي من الجن والمردة وتمنيت لو ان لجاسم مليون جدة يهلكن تباعا . ثم جاءت الخنفساء . انبوب مياه ملتف ومكنسة كبيرة تدرج

على الاسمنت ، فاجأتني في النافذة فما كان مني الا ان قفزت الى السرير كقرد غابة ، لقد رأتني حتما ، لكن ثمة آلاف من الاعذار يمكن ختلاقها ، اصلاح الضوء ، تثبيت الستارة ، قتل عقربة ، وهلمجرا ، وستعدت السكينة بعد لأي ، فخرجت لأكون قرب السياج ، قرب ثوب الرمان والصوت المخمل .

- سيحل الشتاء عاجلا .

- وتأتي الوحول ثم اكنسي ياكدرية ونظّفي .

ماعليّ الا ان أمد اصابعي ، ازيل صخرة من جدارنا هذا ، وجد ثغرة او فجوة او ثقبا يصلني بذلك الجسد ، لكي ، اداعب زغب ظهر واجس بأناملي كل التعرجات اللحمية التي احتواها ، ولا اعتقد ان ثمت حاجة لأخبارها انها قد احاطت بيومي كله من صياح الديك وحتى نجمة الاولى ، فهي تدرك ذلك . اظن انني بحاجة الى المزيد من لفتحات .

- جيراننا مطفئو الانوار هذه الليلة .

لم تلاحظ الخنفساء وقفتي في النافذة . انكمشت في جلدي ، تدعلج استنفر إبَرَهُ العظمية وتأهب للطعن ، اذْ غادرت الخنفساء وتركتني وحدي مع كدرية ، سكاكيني اشهرتها وتحولت اظافري الى معاول . سوف اتسلق الجدار ، انط نطاً او أطيرُ تحليقا ، أنزل الحديقة واطأ زرعها اجوس ممراتهم وانتهك حرمة المحارة المغلقة على نفسها ، تثراء المكفن بالذهب والفضة ، كيف لي ان اروعها بشجاعتي ؟ لكنها ستصرخ ، هل ستصرخ ؟ وسيأتي الأخ الأكبر والأصغر ، ابن خالتها وابن ختها ، العشيرة اجمع بشيبها وشبابها ، رماح ودرابيش ، بنادق ومسدسات ، واكون بين امرين لا خيار لي غيرهما ، اما القتل او كتمان عارهم . لكن ! ربما تفرح . ليس الامر غريبا . فمن اين ابدأ ؟ هل احدثها عن رسوم الحيوانات والاواصر الكيمياوية وزوايا المثلث ، عن

بلور وجهها الذي اراه في السبورة وداخل الكتب وتحت اقدامي في التراب ، الرسوم والكلمات والتواريخ التي حواها طابوق بيتنا ؟

تسلقت السياج . انكشفت الحديقة عارية امامي ، رأسها شتلات اثل تزيد مستقبلا كثافة الحاجز بيننا وبينهم ، الطرف الايمن تنورهم وساقية ضيقة والطرف الايسر كدرية ، عجيزتها قريبة مني وتقف منحنية على مكنستها . لم تحس بي . صار قلبي طبلاً ، شفتاي ملح وحنظل ، قدماي يختضان وشعرت بدنو موتي فيما لو بقيتُ معلقا جنبها وانتبهت لوجودي . بحذر دودة وخطى يمامة وخفة جعل ، نزلت الى الارض وحفرت في الليلة نفسها اكثر من ثقب تطل على الحديقة التي رأسها رمان واقدامها اثل .

منذ تلك الليلة اصبحت الفراشات تتكاثر في بيتنا ، نمتْ في الحديقة اربعة ازهار برية ، ومع ان اشكالها غير مألوفة الا انني جلوت سرهن : واحدة شعر كدرية والثانية شفتها والثالثة جيدها الذي بدا يطل علي خلسة كل يوم والرابعة عيناها المفطورتان على حب خفي . كتبت الكثير على طابوق البيت ، سيقان يوكالبتوسنا ، دفاتري ، وكان جاسم يرقب كل ذلك بعينيه البرّيتين وكان جارنا الذئب يتابع غرابات وقفاتي والتباس لياليّ ، جاسم هو الوحيد الذي استشف ما دخل قلبي من الحب لكنه لم يصرّح به وظل كعادته وكل ليلة اضطجع انا في فراشي تلفني خيوط كدرية ، يتلصص على غرفة الذئب ليسمع شهقات امرأته الشابة اثناء المضاجعة ، وحين يسرقني النعاس يكون جاسم قد انهى استمناءه وظل يتابع الحدث بفضول .

* * * *

جفّتْ الارض وصَفتْ السماء ، الغيوم هربت الى جهة غير

معلومة والطيور حامت على بيوت شارعنا ولامست باجنحة رطّبها المطر ورق اليوكالبتوس ، وكان جارنا الذئب يرمقني بعينيه الحمراوين من خلل القصب . وكما ازدحمت السماء باللقالق والسنونو وحمام المدينة الداجن والنمل ذي الاجنحة ونفّاش بردي ودخان حمّامات المعلمين ، فان شارعنا كذلك اسفر عن ، وقوفي جنب الجدار لتأمل بيت الجيران ، نداءات كدرية واشاراتها الدالة على حضورها خلف اليوكالبتوس ، مرور دائب لحمير جروة في الشارع وهي تجر وراءها احمال القصب والبردي الى البيوت ، اطفال يلعبون ، نساء يكنسن بقايا المطر ، وطائرات ورقية ملونة بقوس قزح واسفنج عتيق .

ولكي لا اظل ورقة صبار ثخينة او صخرة من صخور ابي او نملة بلا جناح ، ارتفع بالغناء فشرع يسري اليها ويؤكد لها وجودي . انه لغتنا المشتركة ، انا وحيد هنا ، فجاسم مضى الى المدينة بعد وقوف المطر . سمعتها تخبر الخنفساء قائلة : سألقي النفايات .

لا استطيع ابدا نسيان هجومي عليها قبلئذ ، لمحتها عند عودتي من المدرسة ، كانت متجهة لرمي النفاية على مزبلة شارعنا ، واجهتها قرب بيت جروة ، مددت يدي لها ، الى فاكهة جسدها المتدلية ، قررت ان اقطف النارنج ، اضم العنب واحوش التين . لكنها ومثل غزال برّي ، نفرت ولم تفه بشئ ، عيناها فقط شعتا وابرقتا ، قلت لها ستقتلني عيناك ، عيناك سكاكين ، ومر علي وقت طويل قبل ان اصدق ماقمت به . رايتها عند التنور غروب ذلك اليوم ، امطرتني بالابتسامات وحمّلتني بعتاب صارم ، ومع انني ندمت اشد الندم على فعلي ذاك ، الا انني عددت ماحصل تطورا خارقا في علاقتنا . كدت ان الحقها . لكنني لاارغب ان اكون علكة فضائح على لسان شارعنا ، لا اود المغامرة بنشر غسيلي على حبل مكشوف لعيون جارنا الذئبية التي لاتنام . رَجعتْ من المزبلة بعجلة وسمعتها تقول للخنفساء : لن اتأخر كثيرا .

ستبتعد عن البيت ، تتركه خاويا وتمضي الى جهة غير معلومة .
وعليّ البقاء بمواجهة الخنفساء فقط ، فكرت في ان ارجع الى فراشي وانام ، اهيل التراب على وقت ليس فيه ثمت ما يحدث ، اعيش في عالم الأحلام ، الا ان مرورها الخفيف اطاح بما عزمت القيام به . مرت من امامي ، ثوبها يصطفق بريح ممتعة ، عصافير وسط صحو ، اليوم كما في اي يوم آخر كانت ساقاها ورديتان وعيناها يمامتان ، العجيزة أرومة نخلة والوجه عاج . حيتني بوضوح ، وحملتني بابتسامتها القريبة مني الى عالم بعيد ، وقبل ان تتخطاني سمعتها تنطق جملة قصيرة حادة لم اصدقها بداءة : أتجيء معي ؟ دون تردد ، دون ريبة من قاطني الشارع ، قالت كلماتها المجنّحة ، وهي واثقة كل الثقة من موافقتي ، ثم مضت ، وما كان مني الا دخول الغرفة عجلا ، نظفت اسناني بالفرشاة وغسلت وجهي بالماء والصابون ، وارتديت بنطالي وقميصي ، مسحت حذائي وسرحت شعري ، في حديقتنا وجدت زهرة برية زرقاء عطرة الرائحة ، فركتها بين اصابعي ودهنت برحيقها وجهي وعنقي وماتحت الابطين ، قد اقبلها خلسة عن العالم ، ثم حملت عند خروجي التميمة التي تقيني ظنون الناس وشائعاتهم .

تبعت مسارها ، كان جارنا جالسا على عتبة بابه يلهو بسحته ، فتحت كتاب الحيوان ، تميمتي لأصرف الأنظار ، الكلمات سلابيح ، الكلمات سلاسل ، امامي بطون مشطورة وانابيب شعرية . اشباح طائرة لا أعي عن اى حيوان تتحدث ، لقد قطعت شارعنا الاف المرات ، ترعرعت بين حصاه ورماله ، لكنني ماوجدت روحي تائها فيه كما اللحظة . انني خائف ، فكل خطوة نحوها مغامرة ، القلب مصطخب والدماء فائرة ، اذ هي المرة الاولى التي نلتقي فيها ، لا وسيط بيننا ، على اللسان ان ينجز عمله باتقان ، عليه ان يقول كل شئ بوضوح وطلاقة . الوضوح والطلاقة هما ما أفتقد ، فمع انني ساغرف من معين نهارات فائتة

جرى فيها الكثير بيننا ، وسأجهد لتذكر ملايين الحوارات المنسقة في الذهن وهي حصيلة ليالي قلق وتشظ روحي ، الا انني لا املك تجربة مع النساء . انا اعجب كل العجب لمن يمكنه ادارة حديث مع امرأة لا يعرفها ، لقد اسمعني جاسم كثيرا من مغامراته مع الفتيات ، لم أصدق طبعا ، أياً من حكاياته ، ولكنْ سأحاول .

استقام بي الشارع ، انها هناك ، عباءتها بيرق أسود ، الطفل بيدها ، انه طفل الخنفساء الذي لاتفارقه ، لقد التفتت الي اكثر من مرة ، فهي الآن نائية عن شجرات اليوكالبتوس ، عن امها ذات النمش على الفخذين ، عن سبحة جارنا وعيون امرأته الشابة ، حرة هي وطَلَقَة ، عارية مثل طفل صغير . كانت البيوت عن يميني والمقابر عن شمالي ، تلال من الرمال تفصلنا عن ساحة الخزان ، وكنت اسير خلفها ، اغلقت الكتاب حين اقترابي ، تهيأت للوثوب ، اسرجت شجاعتي وطويت شراعي ، ما ضرّ لو ارتبكت اوبدا الحياء على تقاسيمي ؟ فهي مغامرة حياتي الاولى ، حييتها بصوت راعش .

– الى اين ذاهبة انت ؟

لم اكن الخائف الوحيد ، صوت كدرية راعشا كان ، وفي عينيها شع البريق نفسه الذي انطلق منهما في الزمن المنصرم ، عند التنور ، وراء السياج ، خلف طابوق السطح عندما تختلس النظر ، أن التقاء عيوننا من خلال الثقوب .

– الى خالتي .

اصطدنا ، كلانا ، طيور الهدوء بشباك من الصمت ، زالت عنا رعشة الصوت وتوتر الوجه وومضة العين ، ثم دخلت بيننا الألفة مجدداً ، تجلت لي عن فتاتي التي اراها كل يوم واسمع غناءها الموجه لي وحدي ، ودخلنا في غابة ذكريات . روت لي عن طفولتها في القرية ، ومكان سكنهم السابق قبل ان يحلوا في شارعنا ، اما خالتها فقد خصتها بجزء

كبير من الكلام .

– آنت تذهبين بكثرة الى خالتك .

– احبها مثل امي . قبل ان نتحول الى بيتنا هذا كنت انام عندها بعض الياليي .

– لكنني ولحد اليوم لم ارها عندكم .

– انها مريضة . احمد ابنها يأتي لزيارتنا دائما ، هل رأيته؟

– كلا . لا يعقل انك تحبينه .

ضحكت . دم سال تحت بشرة الخد ، وعاد ذلك الشعاع الاسود ينطلق من بين فحم العين ، لقد لامست حجرا رخوا في روحها ، وظلت ضحكتها هي الجواب الاوحد على سؤالي، ولم الح في طلب الاجابة ، ونحن ماضيان في طريقنا ، كان حي الأسكان قد ابتعد ، وتخوم المدينة تدور بنا ، وحيدين لا رقيب يرى ، خلفنا بقر الرعاة وجواميسهم في حضائرها ، فحاولت ان أمد يدي الى اصابعها فتمنعت ، فراكبوا الدراجات كثر ، قالت وباعة الحليب وناقلو القصب وطلبة المدارس ، وهي تخشى ان تباغت بواحد يعرفها ، اما اذا كان ابن خالتها فستحل الكارثة ، تتهاوى رؤوس عن الرقاب ويسيل دم ، ثم لتنسيني رغباتي الفائرة ، شرعت تسألني عن جاسم وحياة العزوبية وأهلي ، الا ان عقلي كان في واد آخر . فكرت ان الايام القادمة ستكون مضيئة باللذة ، لا اعود بحاجة الى مضاجعة احلامي وستحذف نصف مشاغلي التي لا طائل من ورائها .

– هناك يقع بيت خالتي .

ومسحت باصبعها المسافات مشيرة الى مجموعة بيوت صخرية ، مظللة باشجار من الأثل ، ربطها مع حي الاسكان شارع ترابي ضيق كان المارة فيه كتلا غير بارزة المعالم . حولنا ، أرض جرداء ، حدود المدينة بالتلال ، حيث كانت جروة تجلب قصبها من البحيرة

الواقعة خلفها ، من هناك ، من وراء التلال اشاد جارنا سياجا اضافيا من القصب والبردي والعلّيق الجاف ليصدّ عن امرأته عيني جاسم البريتين . فهمت ان وقت الرجوع قد ازف ، ودعتها ، طلبت منها ان تزورني في غرفتي فرفضت ، قبلت الطفل بين ذراعيها وملت على الخد . اشاحت قليلا فجاءت قبلتي في الهواء ، لثمت الهواء المحيط بجيدها ، وحملني الطريق ثانية الى ، ثقوبي ، يوكالبتوستي ، صبّاري وثيلي ، فراشي و أريكتي ، الى جاسم والذيب وسودة وجروة وزوجة عامل الصخر وحميد السائق . قرأت بعمق . الكلمات فراشات ملونة ، طيور حب لها ريش مفضض ، الرسوم واجهات بيوت مظللة بالآل وعيون عميقة السواد ورقاب من العاج ، من الجمار ، من الحليب . كم كان ذهني متوقدا ، انطبع فيه كل شئ ، وحين اخبرت جاسم عصر هذا اليوم قال لي :

– هذا يعني بانك ستضاجعها عاجلا .

– كيف ؟

– انها تحبك .

– لماذا لم تعطني قبلة اذن ؟

– لن تحصل على جميع ماترغب في يوم واحد .

بدأت اتوقع رؤيتها من اغرب الأماكن . وأغرب الأماكن التي تعودتُ وكدرية اللعب من خلالها هي ، ثقوب الجدار اجمع ، فتحات البلوك المسور لسطح البيت ، اغصان اليوكالبتوس المتدلية على الممرات ، حجارة البناء المتروكة ، اذ استحالت رسائل حب نادرة الجمال ، الهواء الحامل لذبذبات الصوت ، طائرات الطفولة التي من اسفنج ، قصب الأسيجة . الا انها لم تف بوعد الزيارة الذي قطعته انا عليها .

* * * *

جلب جاسم كرسيه الى الحديقة ، انه كرسينا الوحيد و ووضعه

في ظل الشجر ، وانتبهت الى ان الظلال اصبحت ذات اغراء ، ولا شك ان جاسم سينحدر بواسطتها الى ، افياء تينهم ، جلسات شاي العصر امام البيت ، اوقات قص التمر ، اضافة الى مراقبته الدائمة لزوجة الذئب . ومثلما اغرى الظل جاسم ، فان شمس نهارنا هذا دعتني ايضا الى تسخين قِدرٍ من المياه ، ادخلته الى مطبخنا العتيق وازلت به ، لزوجة حب الشباب التي لاتطيقها كدرية ، قشرة رأسي البيضاء ، وعناء يوم دبق امضيت نصفه المتعب في المدرسة . لمحت اثناء خروجي جاسم واقفا جنب المراحيض . لم ارصده متلصصا من الثقب ، فكتابه بيده ، لذا صرفت اهتمامي الى جسدي . داخلتني القناعة بانني لست منفرا للنساء ، وحين رآني جاسم هتف باعجاب . كنت التمع مثل صدفة ، بَرقَ وجهي بشعور الحب ، وتناثرت حولي رائحة صابون عطرة ، فأنا بكامل الاستعداد للحديث او للخروج مع كدرية . خلسة من جاسم ، حيتني بقبلة من خلف طابوق السطح ، طيرتها عبر الهواء بحركة تلفزيونية ، ووقفت مع جاسم في الحديقة .

لروحي خفة قشة ولجسدي طراوة عشبة خضراء . وددت لو يمضي جاسم الى المدينة ، تموت جدته ، يحس بالعطش فيؤم سودة لشرب المرطبات ، لكن لم يحصل امر كذلك ، وما هي الا دقائق حتى عادت الخنفساء الى البيت من مكان ما ، عادت هي وابنها ، فشاع اليأس في نفسي وعدمت فرصة الحديث معها . غابت زوجة عامل الصخر في غرفتها - بيتها وتطاير الغبار حول زوجة الذئب وهي تجرف نفايات البيت وتذرذرها وسط الشارع ، وراح اليمام والحمام يحوم فوق الاحياء القريبة ، وسمعنا انا وجاسم ولربما ابنة الجيران وجروة وابناء الطين والتراب ، صوت مؤذن العصر قادما من جوامع المدينة . قلت لجاسم دعنا نأخذ جولة قصيرة ، فالفينا الخنفساء جالسة وراء صفحة بابهم فالقينا عليها التحية ثم مدَّ جاسم بوزه بفضول علَّه يلمح ماوراء الثياب ، فرمقته

بنظرة حاقدة فقال لي لاتغضب ، فانت لم تتزوجهم بعد .

– كيف حال امك ؟

سألتني جروة الجالسة عند الباب ، محاطة بزنخ الحمير ، ذباب المزبلة القريبة ، اكوام القصب والزل والبردي والعلف ، اثر الحريق الهائل باد على اللبن والارض ، أفق أزرق طوّق الأحياء والحارات .

– بخير .

عجلا أجبتها لان الزنخة لا تطاق ، الا ان قيامها من مكانها اضطرنا للوقوف .

– الا تعود الى السكن ثانية في المدينة ؟

– لا أظن . فابي لم يعد عاملا في مصنع الزجاج ، والبيت سنبيعه السنة القادمة .

– تبيعون البيت ؟ مصيبة . واين تذهبون انتم ؟

– سندخل الجامعة يا خالتي .

ودعتْنا جروة بحرارة . ثم مشينا ، وبالحاح من جاسم ، بين بيوت حي المعلمين . فاحدى لذائذه الكبرى ، ولوج الحي عند الغروب ، ثمة ، وعلى الأسطح كرنفال من الثياب الملونة ترتديها الفتيات حالما يشرعن بالمذاكرة ، وذلك ما كان يبعث القشعريرة في جسده . اوراق جوري ، ملاس نرجس ، حليب رائب ، تفاح شام ، بطيخ اصفر في موسمه ، تلك اوصاف جاسم يطلقها على هاته الفتيات المدللات وكان يتلذذ بابداع نعت جديد . باشارات لاتفهم ، مسح الشعر مرة بعد اخرى ، مداعبة قصيرة لما بين الفخذين ، رسم علامات مبهمة تدل على الخروج او المسير ، شرع جاسم يغازلهن ، لكن ليس ثمة من استجابة واضحة . الفتيات منشغلات بالقراءة وحركاته مرّتْ في نساء البيوت الواقفات في الابواب مرور رموز لاتدرك ، ذكورة من نوع آخر ، النساء كن لجاسم اجسادا ً مشرعة للمضاجعة ، اللحم الرجراج بحاجة الى

الدعك ، الرص ، السحق ، والحرير في لهفة الى التجعيد ، وتلك اوهامه هو فقط ، فلا احد شعر بمرورنا بين الازقة . انني لم احلم يوما ، وطوال مروري بحي المعلمين هذا بجذب نظر احد ، فقد كنت اقارن ملابسي وهيئتي بشباب الحي فلا اقع على اي بارقة للأمل ، هم ، وجوه رقيقة بياضها مشرب بحمرة ، اردية بموديلات غريبة ، عطور وروائح ، بيوت مطلية الشرفات ، نحن ، ابناء فلاحين ، لحد الان لم نعتد على رائحة البنزين ، واللبس الحضري ، والحديث مع النساء ، فكيف اوتي لجاسم الحلم بواحدة من هاته الفتيات ، كيف استطاع الولوج كل يوم خلل الحي دون الشعور بالعار .

بصوت خفيض اعلن جاسم عن نفسه . انعطفنا خارجين من الحي ودخلنا ساحة الخزان ، فأخذ صوت جاسم يزداد علوا وسار به قليلا نحو سماواته الاولى ، نحو قطعان الغنم والدريس وحصاد الصيف وضفادع السواقي وجلسات الدواوين . غنى العتابا بايقاعات راقصة ، الابوذية بآهات عالية ، الاغاني الحديثة على الطريقة الريفية المحبذة عنده وفي هذه الاثناء سقطت انا فجأة بحمأة من الخجل ، ففي وقت كهذا كان المارة كثر ، الذاهبون الى المدينة والراجعون من افران وجبة العشاء ، ومع روحي كنت ابتهل لئلا يكون بينهم اخو كدرية راجعا من متجره ، فمن المؤكد انه سينقل مارآه الى وستحل الفضيحة ، اضافة الى انني امقت ان نسفر عن اصولنا الريفية . جاسم يعلم عدد المرات التي تشاجرت فيها مع طلاب مدرستنا لانهم وصفوني ، وبشئ من السخرية ، بالقروي . ولعل هذا السبب جعلني ابتعد عن مغازلة الفتيات ، ولست اكيدا من قيام علاقة مع جارتنا لو لم يكن جذرها مثل جذري ، هنا ، انتبهت الى مايدور ، توقف راكبو الدراجات ، تسمرت نسوة البيوت في الابواب ، تحشد صبية من مختلف الاعمار ، زمّر السائقون وضحك الراجلون ، لقد صاروا شهودا على ، الطالع من البرية ، الفتى القادم من قرية نائية عن

المدينة ، الغناء الملئ بالحصى والعاقول والرمث والفطر والرمال . تكورت انا في جلدي ، دعلج خائف ، قوقعة زال بريقها الجذاب ولاحظ جاسم امتعاضي فتساءل بوقاحة :

- صوتي جميل اليس كذلك ؟

- اصمت . ظنوك بدويا يرى المدينة لاول مرة .

- اهم أفضل من البدو ؟

- كفى ! لنعد الى البيت .

الفينا جارنا الذئب امام داره ، وما ان وقعت عينا جاسم عليه حتى إمتعض وجهه وراح يبتكر اغرب الألفاظ في هجاء امراته ، كنا نتفادى المرور قربه كي لانحييه ، قال جاسم انه يقف رقيبا على امراته ، الشارع خال الا من بعض الصبية واحد حمير جروة يتسكع قرب الزاوية ، واضطررنا الى تحية الذئب اضطرارا لأن عينيه الحمراوين مثبتتان فينا ، مسبحته بيده ، كوفيته منشورة على كتفيه ، ودشداشته تنم عن قساوة بالبخل . اطبقنا الباب بشدة ، الدخان كان هناك ، طيور اوهام تتلاشى دون اثر ، الدخان يدعوني ، قال جاسم من داخل الغرفة انه سيعد العشاء ، فمشيت انا قرب تنور امي وكانت هناك مع ابن الخنفساء الاقرع ، وكانت ترقّصه : سلة قومي ارقصي ، سلة لاتستحي ، سلة امك اليمامة وابوك الغراب ، اليمامة تلد والغراب يطعم ، سلة قومي ارقصي ، هل هو غناء ام رقص ، حكاية ام تلاعب باللفظ ، انهما فرحان ، الرائحة النزغة والمساء الجميل وظلمة الورق وضياء الفلوروسين ، ولا تلصص الليلة ، سيعيش الجيران بسلام . لا كدرية ولا حمدية . قراءة فقط . انتهت ليلتنا فتمددت في سريري . الليلة اشبه بالليالي السابقة ، تقلبت بين ضجري ، حاولت امساك شئ من الايام الفائتة فاذا كل ما حدث زبد ، وكالسابق جاءت طبطبة اقدام جاسم ، القط البري يبحث عن فريسته ، علب فارغة تصوّت وسط الحديقة ، والغناء الرخيم نثر الى

الليل ورود الحقول وانفاس بنات الرمل واحزان الصفصاف ، لا حمدية ولاذات النمش ، وكما هاج غناء جاسم بغتة سمعته يموت بغتة دون ان ينقلب الى سريره . خمنت ، بين اليقظة والنوم ، انه ينصت الى وشوشات الزوجة الشابة واندفاعات شهوتها .

****

يوما بعد يوم كان حنين جاسم الى القرية يزداد ، وتوقه الى الخلاص من المدينة والى الابد يجعله عرضة لاغرب الانفعالات . المطر يذكره بالشبابيك ، الشبابيك تجلب سيقان التفاح واغصان الليمون الباكية تحت المطر ، فاقول له كل يوم ، اترك المدرسة وامتهن الفلاحة ، انه يود ذلك من القلب لكن القرية ستظن انه فشل . كنت اجاهد لاقناعه على الاستمرار في السكن هنا ، ماهي الا غمضة عين وننهي الامتحانات ، عندئذ ، سلاما لحميد السائق والذيب وشارعنا . في الايام الاخيرة تكلمت مع كدرية مرتين ، وهي تخبز عند التنور ، وفي احدى المرتين لمحني جاسم وانا اهم بملامسة يدها ، فثارت ثائرته وقال محذرا ، سيقتلونك ، ثم ، راح يعيث الفساد بامكنتي ومشاريعي واوقاتي ، لا اعلم اهو الحرص على حياتي لأنه احس بتماديي ام الغيرة والضجر الذي شرع ياكل روحه بعد ان ودعنا الشتاء .

- ساخرج للنزهة .
- لم تجف الطرقات بعد ...
... هل هناك فتاة ؟
- اسمع ، راسك لايحوي سوى جسد امرأة ، لاتظن الناس مثلك .
- أمس رايت سائق التاكسي يدلف فجرا الى غرفة عامل

الصخر .

انا اعرف كيف ادخل الى جاسم ، فهو محب للفضائح ، وهكذا طفق يروي تقريره عن الشارع ، من ضاجع من ، من اختلى بمن ، و من في طريقه الى عمل الفضائح ، وهو يسهب في التفصيلات وربط الاحداث ويخرج باستنتاجات تسره . قلت له :

- هل تجد في القرية مسرات مثل هذه ؟

- لكننا نتفرج فقط .

- في المستقبل نشرع بالعمل .

وخرج جاسم للنزهة . خرج العاشق للمطر والفضائح والحدائق المغسولة بالمياه ، وفكرت ان الحياة هنا ستصبح صعبة من دون جاسم ، فلربما يطلب ابي مني السفر الى المدرسة من هناك كما يفعل جاسم ، الشئ الوحيد الذي امقته واخشاه . اطلّتْ الشمس وضحكت البيوت ، اضاء في اوراق الشجر لونها الاخضر وامتزجت زرقة السماء بالعصافير . كان الجمال كله لي ، ساشتاق لامحالة الى كدرية ، هل اغامر بنسيان عينيها العصفورتين وصوتها الطالع من مدينة السحر وعناقيد شفتيها ؟ بدأ الاطفال يخرجون من البيوت ليعرضوا العابهم في الاماكن الجافة ، نظرتُهم ، نظرت عبرهم سنوات طويلة لم اعدْ بقادر على عدّها قضيتها في الشارع ، لقد أنشئتْ بيوت جديدة وغارت عن الارض اخرى ، كَبُرَ جيلٌ ونشأ جيل ، الا ان لعبة الكرات الزجاجية والكعاب ومقاليع صيد الطيور ، هي الوحيدة التي لم تفارق شارعنا ، لعبتها انا مع ابناء جروة مراراً ، وهاهم الاطفال يؤدونها بنفس الحذق الذي كنا نؤديه .

خطر لي ان احدق من الثقوب . وماهو مؤكد ان الذئب لن يتأتى له فهم ماأمارس ، اذا ما رآني . كيف له الوصول الى قراري بمواصلة الحفر والتحديق الى الجيران لكي ، أطل على كدرية ، اسمع اسرارهم ، فضائحهم ، احدق الى مالاينبغي التحديق اليه ، املأ حياتي الفارغة بشئ

محسوس . فلا الدراسة ولا حب كدرية ولا احلامي الفيضانية بكافية لجعلي أحسُّ بالجدوى .

الحديقة الخلفية خالية ، الامامية ايضا ، والثقوب المشرفة على الممرات احالتني الى الفراغ نفسه ، لا احد في السطح ، الشارع اصطبل لجارنا ، البيت مقبرة والآفاق عارية . بابهم مغلق والطائرات الورقية في سماء حي المعلمين وحي الاسكان والمدينة كلها ، رأيت واحدة تحلق في المدى القصي ، بالضبط فوق بيت مظلل بالاثل ، رأيته مرة مع ابنة الجيران ، تقطنه امرأة موبوءة بروماتيزم الريف ، اسم ابنها احمد الذي لم اره لحد الآن . انها هناك . ليست في البيت ، ولا في الشارع ، اذن في بيت الخالة . مستقبلا ساستدرج قريبتنا سودة لتطلعني على شؤون تلك العائلة .

– من هناك ؟

انبعث صوت امرأة من عند الجيران ، وأغلق بعدها بابٌ ، ثم عمَّ الصفاء البيت والفيت الذئب واقفا امام الدار ، نشر كوفيته وشمّر دشداشته وعبر بيتنا هو ونظراته المستريبة ، ثم جاءت المكنسة . المكنسة تدور في الفضاء كناعور ، تنثر حولها الماء ، تطرطش بقايا مطر وضباب ورذاذ على تراب الحديقة وبرتقال المستقبل وورود الممرات ، من هو الجسد الذي يقف وراءها ؟ من اليد الباعثة للضجة وقلق الروح وموج التطفل ؟ لم اقو على سماع الطاحونة ، لان مايبعدني عنها ثقوب فقط ، وكعادتي تحولت الى رغبة ، الى أمنية ، الى عين لاستجلي مايدفع الطاحونة على الدوران . من الحديقة ، جمعت اوراقها العتيقة وعيدانها وثيلها الميت ، ومن الغرفة بعضا من الملابس الرثة ، وشعر الرأس والريش ونسالة الكتب والجرائد وخشب الاقلام وخوص السجاد ، واحرقته عند رماد الام . الثيل حول حنفية المياه قطّعته وبيتنا درت حوله كالابله ، دون ان يغادرني صوت المكنسة عند جيراننا . ذهبت مباشرة الى الثقب . ازلت

القماشة . لعنت الذئب وجاسم وسودة وحميد السائق . دسست عيني في الثقب ، وكان الدخان يتصاعد من حولي ، وتحت سلطتي ، حديقتهم الامامية ، شجيرات احلامهم ، باب المراحيض ، سرّهم وعلانيتهم ، محرماتهم ، نساؤهم وفتياتهم ، الحياة التي نبتت جوارنا قبل سنة ومدّت جذورها في شارعنا . لاهي كدرية ولاهي حمدية . انها الأم . قال جاسم انها تؤكل ، عجيزة وسيقان ، فم طري وعيون متألقة ، والمرأة هي المرأة ، من العاشرة وحتى السبعين ، لا أظن انه على حق . شعرت بالخيبة وفكرت بالرجوع الى كتبي وأحلامي ولكن ، كان ثوبها جاذبا للنظر ، ثوب قصير ربيعي كشف نهايات ساقين ابيضين ممتلئتين لايمكن لمبصرهما الا حبس روحه امام الثقب او الباب او الحلم ، فأهاجني المشهد وودت ان لايعود جاسم . مع كل انحناءة لجسدها ، كان قلبي يطير الى فوق ، واعصابي تنشد اكثر فأكثر ، وعيناي تبرزان خارج المحجرين ، والهياج يستعر في داخلي كما يستعر فرن أو تنور أو نار . انهت عملها والقت المكنسة في التراب وكان ذلك قرب المراحيض وبمواجهتي تماما ، وكما لو تعمدت اغاضة ذلك المتلصص على الجيران العاشق لأبنتها والذي سيغادر الشارع والمدينة ذات يوم ، رفعت ثوبها الى الأعلى وانزلت سروالها الداخلي وقرفصت على حافة الممشى للتبول . هذه المرة الاولى التي ارى فيها جسد امرأة ، انا وهو ، الحلم مجسم امامي ، عري محاط بجدران ، نمش وشعر وبياض وغمام . خدر غريب ، تدافع انفاس ، التهاب شهوة عارم وانطباق الوان مشعشعة ، ودون ان اتحكم بها ، اندفعت يدي بحركة افعوانية متسللة الى اسفل البطن ، حيث دخلت بعدها الى متاهة لا حد لغرابتها ، سقطت من حالق ، تشظيت الى مزع لا عد لها ، ثم ، عن يميني ماقتئ الدخان يتصاعد والاشجار تنتصب والشمس مشرقة في طرف ما من حقل السماء الذي من ياقوت . الشمس وحدها من جفف دمي المسفوح على صخور الحديقة وترابها واغصانها ، دم ابيض ذو

رائحة حادة كرائحة المطر ، سائل ، مائع ، رغوة ، زبد ، مسمياتي أراها بام عيني ممتزجة بالاحياء المجهرية الاخرى ورطوبة الاجواء الجوفية ، وانا لم اعد اميز بين يوم وآخر ولحظة واختها ، لقد فقدت الأحساس بالوقت واصبحت مسحورا بتأمل الزنابير الطائرة والنمل الطائر ورخاوة اليوكالبتوس . وجه جاسم غير مألوف . وجهه كربة نخل جافة ، صلبوخ محروق ، قلت ما أن رأيته :

- ماذا يخبئ وجهك الشبيه بالكربة ؟

- يخبئ فضيحة .

- ماذا تعني ؟

- اخبرتني سودة :ان الذئب رآكما تحدقان الى الجيران .

زوجة عامل الصخر تعني ؟

- كلا اعني الثقوب .

ضحك جاسم ضحكة العارف بالامور ، وسار الى المراحيض ووقف في الباب ، اتجه اليّ وغمز ولمز وازاح قطعة القماش من الثقب وقال هامسا :

- اتظن انك الوحيد الذي يراقب بيت الجيران ؟

كيف عرف الذئب اننا نتطلع من الثقوب؟ فانا شديد الحذر مثل غراب ، لا ادسّ عيني الا حينما اقطع بخلو الرقيب ، اما لو قدر له رؤيتنا من وراء القصب فلسوف يتعذر عليه رؤية الثقوب المفتوحة نحو حديقتهم الخلفية ، الا ان سودة وكما شرحت لي فهمت انه على اطلاع تام بكل الاعيبي التي قمت بها مع كدرية . وستظل قضية اعلام جيراننا قضية وقت لا أكثر . هل رأى جاسم ياترى ؟ خاصة وانه مثلي شاهد جسد حمدية والأم مراراً واستمنى بكل حرية وراحة بال ، كنت متوجسا من ان جاسم سيتسبب لنا بفضيحة . انني بحاجة ماسة لمراجعة ماحدث .

في الفراش ، وداخل الحديقة ، واثناء اقامتي في القرية ، رحت

اسأل نفسي بقلق ، هل أنا عاشق ام مجرد شاب يحس بشهوة لجسد و كتلة صلدة من الرغبة ، ام ان ما عشته واعيشه من الحريق ، هو حب بكل ماتحمله الكلمة من معنى ؟ لماذا لا تحاصرني كدرية بهذه القساوة الا حين ، تلوح اعمدة خزان المياه لناظري ، تندفع رائحة المدينة الى خلاياي ، التقي بسودة وأحيي جروة والمح اطفال الديزانتاريا وباعة الحلويات ؟ التساؤلات بحاجة الى التوضيح ، والايام تمر سريعة والسنة في طريقها الى المضي .

الشمس قطعة حلوى ، والظل زبدة ، وكلاهما لذيذ ، لذيذ ومدهش . حديقتنا نَمتْ ، اخرجت أزهارها ، واستطاعت عساليج اليوكالبتوس ومالت لتقبيل فم كدرية ومداعبة فخذي الام التي كانت تعرضهما كل يوم لشمس الصيف ولاشعة عيوننا . جلست على الكرسي وقرأت بعمق ، وأحسست بالذئب على مقربة مني ، ملأني غيظ لا وسع له ، ولنقمتي عليه اخرجت المذياع وأطلقت لاغانيه العنان ، أعرف انه يكره ذلك ، خوفا على امرأته من التلوث .

الهدوء شامل . المساء قادم من الاطراف . رأسها بدر تمام ، رغيف خبز لم ينضج ، هالة من الشحم ، مرآها عصف بكل ما كنت انوي القيام به ، كانت واقفة على التنور ، الوقفة نفسها التي رأيتها أول مرة ، فقمت اليها ، عبدها الطائع الذي لايبالي بشئ ، وحيتني تحية راعشة ، وكلاشئ كان وجودي امامها ، سافرت الى صحارى لم تطأها قدماي . ليس لي قِبَلٌ على الاطلاق بمقاومة اهداب يوكالبتوسية كهذه .

- أنت تقرأ اليس كذلك ؟

- نعم فالامتحانات قريبة .

- سأشتاق لك كثيرا .

- ربما أرسب في الامتحان . ففي البكالوريا لا أحد يضمن النجاح .

– لن أكون هنا في السنة القادمة . جئت لاحذرك من الرجل العجوز ، فقد اخبر أمي بكثير من الامور .

كان كلانا يحدق بالآخر ، انتظرت منها ا تفيدني بمعلومات اكثر عن الذيب ، الا انها فضلت الصمت وبقيت متعلقة بحافة الجدار .

– الا يمكنك النزول الى الحديقة ؟

– انت مجنون .

اكتسى وجهها بحمرة فاقعة وشعت عيناها ، ضحك جسدها وتغنجت قصائبها و كل شئ فيها يغري بالهجوم ، فخطوت خطوة اليها ومددت يدي ، سأحوش الرمان وامتص القصب ، إلا انها ، تدافعت الى الخلف ، ذَعرتُ و هربتْ الى ممرات تحميها مني ، الى الام والاخت ، هربت من فضائح شارع يعشق الفضايح . لكنها مضتْ والا الابد .

طُرقَ البابُ ، طرقٌ عدائي على حديد مقشّرٍ ، لا أظنه جاسمٌ فهو يملك مفتاحه الخاص ، ولا سودة إذ أنها تتحاشى زيارتنا خوفا من الألسن . أما الذيب فما من عادته ان يكون لطيفاً معنا ، فهو معتاد على القفز من فوق السياج حين يطلب شيئاً ، فذهبت الى الباب بخوف . فتحته فواجهني شخص غريب ، وجهه اسمر ، شواربه صارمة ، عيناه قدتا من حجر محترق ، نظراته النارية لاحد لغضبها . لم يلق عليّ التحية ، لم يبتسم في وجهي ، لم يدل باسمه ، ولم أره يوما في شارعنا . اندفع الكلام من فمه سريعا ، ماءٌ ساخناً ، حجارة صلدة ، حمما من الحقد والوعيد والشتائم المختزنة طوال قرون من البداوة والعزلة ولم أفهم من ذلك البركان المنفجر في وجهي الا جملةً :

– الا تخجل من نفسك ؟

ما فتئ يرددها دون كلل ، فاستفهمته عن سبب هجومه فأجاب :

– اتظن ان لا أحد يراك أيها السافل ؟

- من تكون ؟

- اخرس ! اطّلعتُ على الاعيبك ، وسأقلع عينيك ان اعدتها ثانية .

كخرقة جافة تركني الرجل ومضى ، وليس بعيدا عن الباب كان الذيب واقفا ببرود ، دون تعابير تنم عن احاسيسه تجاه ما حصل ، واحدث ولوج الرجل الى بيت كدرية ، مشادات كلامية وبكاء واصطفاق ابواب وطيران عصافير وسيلان مياه . اسرعت الى الغرفة ، لبست بنطالي ، تناولت اول كتلة بيضاء يسمونها كتابا وأطفأت النورَ ، أظنني بدأت أفهم ماحصل ، ولخوفي من رجوع الرجل ثانية هِمتُ خارج البيت ، بين الساحات والأزقة ، لا أعي الى اين تقودني قدماي .

* * * *

اطفأ الذئب انوار بيته ، هال على القصب الرماد ، وذرّ قبل ان ينام مسحوق حجره اللئيم في قلبي ، تحول الى غيمة من الحقد ، غيمة سكنت قلبي ، تشبعتْ بها أعضائي واحاسيسي فلم اعد اطيق رؤية احد من الجيران . من اخبرهم بامر الثقوب سواه ، ومن كان الشاهد على فضيحتي مع أحمد و هل ثمة احد غيره علّقني على حبل الغسيل في سماء شارعنا ؟ قال ؛ كان يلتصق بالجدار ، تحت اشجار اليوكالبتوس ، طوال النهار ، فحسبته مجنونا ، ومع انه يمسك بيده الكتاب على الدوام ، الا انني ادركت اللعبة ، فبدأت اتجسس عليه ، من خلف القصب ، من النافذة ، في الفجر بعد ان اكمل الصلاة ، ولما تأكدت من شكوكي وايقنت من دونيته ، قررت ان انبههم ، فقد أوصينا بسابع جار . هكذا روت سودة حديث الذئب . على اية حال ، ماعاد الامر بخاف على احد ، وقعت في الفخ ، وانا الآن علكة في الأفواه ، حصاة تطأها الاقدام ،

ورقـة بالة في طريقها الى المحرقة ، أنا الآن وحدي . رحل جاسم الى القرية منذ اسبوع . لم يعرف بامر ماجرى مع أحمد ، كنت أخشى ان يسربه الى القرية ، حيث يقضي علي ولا اعود من بني البشر . لقد مضى مطمأن البال ، مع انه لم يودع اي شخص ولا أسف لرحيله امرءً ما ، مضى وتركني وحيدا في المقبرة ، أغادر الى المدرسة لائذا بالزوايا وظلال البيوت كما لو كنت لصا ، والد اعدائي ، عينا الذئب ووجه الام ، أما حين اعود من المدرسة فان انسلالي الى البيت اشبه مايكون بانسلال أفعى .

كان الباب مغلقا ، لا ارى اي مار في الشارع ، قمر في السماء ، ضفادع في الحديقة ، الحديقة مطلية بنور اخضر ، والثقوب مطلية بالطين ، القريبة من المراحيض والمجاورة لتنور امي والقائمة عفوا بين الصخور ، وهاهو بابها هناك ، مغلق دوني ، فقد قالت لي سودة انهم يستعجلون اقامة العرس . وقفت برهة امام الباب . الشارع مقمر وانا مدثر بالكآبة . هاهي بصماتها السحرية تحت اصابـعي ، لامسـتها كاللص ، صدى اغانيها في الهواء المحيط بالباب ، استنشقه كغريق ، وفي اللحظة التي هممت فيها بتقبيل الباب اقبل راكب دراجة من حي الاسكان فغادرت مكاني ودخلت البيت . ضعت في ، متاهات من التخطيط ، مربعات ومخاريط واسطوانات لها رؤوس أبرية ، محاليل سوائل ، روائح قادمة من عوالم الانشطارات والاندماجات والتحللات ، ضعت داخل الغرفة وسط كتبي ومساطري واقلامي ، وتحولت في الخارج الى طيف يمشي مثلما الهواء في الممرات والظلمات والاروقة ، حشرة لاتُدرك تسافر الى عالم آخر من الايهامات والاسرار الخافية عن الأعين ، غلاف لعيدان تحللت منذ عهود أمي . عندما وقف جاسم بانتظار باص القرية ورأيت كتبه وملابسه وسريره ، داخلني احساس انه نقل عدوى الهروب من العاهرة اليّ ، العاهرة التي سأغادرها دون وداع لأحد كما فعل هو ،

اذ ما عدت اقوى على العيش كدودة .

امس ، كما الليلة الاولى التي حدقت فيها داخل القوقعة ، سمعتهم يتكلمون ، لم اعد فضوليا كالسابق الا انها من دوافع وحشتي ، الرجل الاصلع كان يهز كرسيه ويتحدث عن ارباح سودة . اقترح على الام ان تتوكل القيام بمهمة البائع فيما لو اقام دكانه امام البيت . قالت الام وهي تتناول بطيخا من ماعون غير مرئي ، لا أريد ان اصبح مقعدة مثل أم احمد ، وفي المرة الاخرى ، روى ابن الخالة حكاية طويلة عن الاخشاب التي اشتراها لغرفة الزواج ، وكانت كدرية غائبة .

انه هو ، الملامح الجامدة والعيون الشبيهه بالضب ، انه هناك ، قطّاف تفاحي ، رقّاء نخيلي ، بعينيه وملامحه ووجهه ، لقد أحالني الى شبح ، الى صدى في مقبرة ، انه معهم ، أما أنا ففي عالم من الانهيار الشامل . بال على مشاعري وهزأ بأحلامي ، والامر الوحيد الذي خلّفه لي وأسَرني واكتشفته في توحداتي السالفة بعد رحيل جاسم هو انني لم اعد أخشى الظلمة .

قبل أن ارحل ، صرت أتحاشى سماع صوت كدرية لانه يسحبني خلفه كأفراس نهرية الى ليل اليوكالبتوس والذكريات العميقة الحادة الجارحة وليل أحلامي القلقة ، ولم نعد الى لعبة الكشف والتمويه ، اصبح صوتها خفيضا منكسرا ، وتحولت انا الى ، راحل ، شبح ، ضفدعة ، صخرة صماء نبتت عليها اشنات وحيوانات مجهرية وفطر سواق لم تطلها يد ، ومثل جاسم جعلت اتوق لرؤية بساتين القرية وغابات الصفصاف ودخان التنانير .

لكنني وقبل ان ارحل ، وضعت الى يمين ذاكرتي ، واجهات بيوت حي المعلمين بزخارفها وقتياتها وحريرها والوانها ، الى اليسار ، كل كثبان الرمل التي شهدت ذات يوم اللقاء الوحيد لي بكدرية وارض الخزان السبخة وحصى شارعنا ومزبلة جروة المغطاة بالذباب على مدار

السنة ، اما الى الاعلى فقد وضعت ، الطيور البيض والزرق والخضر من بينها طائر دخاني والغيوم التي كنت اراها على شكل تنين او زهرة جوري او سلحفاة او منجل وزرقة اليوكالبتوس واطياف احلامي الغازية لي ايام استلقاءاتي في الحديقة ، وفي الأسفل حقل من القسمات الدالة على فقر لا حد له وانفلونزة وطائرات من الورق والاسفنج وكرات زجاجية وجدران طينية واناس لائذين خلفها كالفئران .

ودعتُ من قاطني شارعنا سودة فقط واعطتني نقودا لاسلمها لامي ثمن سمنة . احسست نفسي حين تطلعت الى طابوق الذكريات ، اغوص بمياه باردة لها طعم توت بري وقُبل طرية . كنت بانتظار الباص ، معي كتبي وفراشي وخيباتي ، وفكرت بحياة اخرى ساعيشها مع كدرية ثانية ، فكرت بالبكالوريا ، بجاسم ، بعشر سنوات امضيتها هنا ، كانت السنة الاخيرة اجملهن على الاطلاق . لكن الى متى ستظل طابوقات البيت محتفظة بذكرياتي ، هل هي ذكرياتها ام ذكرياتي ؟

عندما تحرك الباص ، لم يكن احد من الصبية في وداعي ، الا انني ومثل رؤيا غير مؤكدة ، لمحتُ عينين سوداوين ترقبانني من مكان خفيّ غير مؤكد ، مثل رؤياي .

دكــة الموتى

قضى العريف سلمان أو أبو داود كما يلقب في المعسكر ، ظهيرة مرهقة قاسية منذ وصول جثة ذلك الجندي مجهول العنوان الى مغسله . لم تصل وحدها الى مغسل العريف ، انما يرافقها جثتان أخريان ، حصيلة المعركة الاخيرة القائمة على حدود المدينة . قام بواجبه تجاه الجثتين كاملا ، أدخلهما المغسل ونزع عنهما الملابس المتربة الملطخة بالدماء ومددهما على الدكة وغسلهما بالماء الحار ثم عطرهما بالكافور لازالة رائحة الموت العالقة باصرار وتشبث والبسهما بدلتين جديدتين بعثهما آمر المعسكر وحين انتهى منهما أضجعهما في تابوتين جديدين جلبا توا من المنشرة وأحكم عليهما الغطائين ولفهما بالعلم الوطني بنجومه الثلاث والوانه الثلاثة وكتب ، وهو مايقوم به في الاخير عادة ، اسم كل منهما وعنوانه الكامل بدقة وحذر على ورقة ملصقة جنب التابوت .

استدار الى الجندي الثالث فمدده على الدكة ايضا وأوشك على نضو ملابسه ، الا انه وقف مترددا بغتة ، اذ ادرك اللحظة فقط انه بدون عنوان . قلّب الأمر في عقله وسأل نفسه اكثر من سؤال عما سيفعله مع جثة لا هوية لها . السيارات الثلاث قادمة لنقل الجثث بعد قليل وهو لم يهتد الى حل مقنع ، فانتهى الى الآمر مرة أخرى ، فلا بد من الذهاب اليه ثانية ، الشئ الذي لايرغب فيه كثيرا . في المرة الاولى ، دخل عليه وقت وصول الجثث وكان جالسا في مكتبه الفخم ذي الهواء البارد والأرائك الجلدية والستائر المخملية وذلك التلفون المذهب الذي تناوله بكسل ليرد على شخص ما أعلى رتبة منه ، اذ كان يخاطبه باحترام واجلال ، بينما ظل أبو داود متسمرا عند الباب ينتظر نهاية المكالمة .

– كم الحصيلة اليوم؟

سأله المقدم بوجهه الضخم وشاربيه الرفيعين وعينيه الصغيرتين اللتين زاد من ضيقهما امتلاء خديه وتكورهما حول انفه .

- ثلاثة جنود فقط سيدي .

كان يقدم له أثناء كل معركة تقريرا يوميا عن عدد الجثث ونوعية الاصابات واحتياجاته من التوابيت والاعلام الوطنية والروائح ، يتلقاه بتعابير مبهمة ما أستطاع العريف سلمان الوصول يوما الى مغازيها ، فكل مايلمحه ، تلكما العينان النافذتان وذلك الوجه الجامد بشاربيه الرفيعين كأنما رسما بقلم الرصاص .

ترك العريف سلمان الجندي ملقى على الدكة وخرج من المغسل عبر شوارع المعسكر الضيقة المحاطة بأشجار عتيقة من الاثل واليوكالبتوس ، متوجها نحو مكتب الآمر وسط ظهيرة تكاد حرارتها تذيب كل حي على الارض .

- الجندي الثالث لايحمل أي عنوان سيدي !

خاطبه بصوت هامس مأزوم ، وقطرات صغيرة من العرق تنضح من وجهه وتنحدر الى شفتيه المفتوحتين .

- هل قمت بما يلزم ؟

- الجنديان الآخران جاهزان للنقل أما الثالث فجئت أسألك بخصوصه سيدي . فما العمل؟

- لقد طلبت ثلاث سيارات ، لكن لايهم ، ارسل الآخرين وسأتكلم مع قيادة الفرقة حول الثالث . ربما ننقله الى بغداد .

- لكن سيدي ... لا يبدو أنه من سكنة بغداد .

- ايها الغبي ، من قال اننا سنرسله الى أهله . سنبعثه الى البراد العام أو الى مقبرة المجهولين .

خائبا عاد أبو داود الى مغسله ، وجاءت السيارات عقب وصوله ، فرزم التابوتين بمعونة الجنود المرافقين وأشار الى السيارة الثالثة

بالرجوع ، دون ان يرغب في ايضاح السبب .

غادرت قافلة السيارات وانقلب الى الجسد المسجى على الدكة وطالعه أسمه المنقوش على الجيب الايسر من بدلته العسكرية : يوسف ، لكنه لم يدخل في نفسه اي أمل يذكر . فمن يميز اسما من بين ملايين الاسماء المتشابهة؟ تأمل وجهه الصغير وحدق بذلك الثقب المدور الحوافي ، جرحه المختلط بالغبار والقيح والبارود ، لايمكن احداث جرح كهذا الا قذيفة آر-بي-جي . اختلطت الأفكار والخيالات على ابي داود بحدة ما شهد لها مثيلا مذ كان جنديا متطوعا قبل عشرات السنين . والعريف أبو داود كان قد استدعي الى الخدمة العسكرية من جديد بعد أن سرح من الجيش لأسباب صحية . وفي وقتها ظن انه سيقضي ماتبقى له من حياة ، في هدوء وطمأنينة وسط عائلته وقريته حتى فاجأته الحرب من حيث لايعلم واستدعي الى الخدمة لضرورة الموقف كما جاء في كتاب الاستدعاء .

* * * *

كانت دكة الموتى من الاسمنت ، ترتفع قليلا عن الارض ولها تقوس في الوسط يضم حوض الميت بشكل مريح . وهي تؤدي الى ساقية صغيرة اسمنتية ايضا ، تسرب المياه الى حفرة عميقة خارج الجدران أشبه بالخزان : خزان من الدم والتراب والبارود والروائح والكافور والعطور النفاذة وبقايا الصابون وقشور الاجساد المنسلخة . وتحتل الدكة قسما من قاعة طويلة قسمت الى قسمين : الاول وهو اشبه بمدخل صغير وضع فيه العريف سلمان طاولته بمواجهة الباب وكرسيه الخشب الذي يتكوم فيه الآن ساهي العينين محدقا في فراغ المعسكر عند الغروب . والقسم الآخر ، وهو الرئيسي في القاعة ، فقد صار محفظا

للأعلام الوطنية وقسائم الموتى والتوابيت الجاهزة من المنشرة وعلب المسامير ، واظهر مايبين فيه دكة الموتى بصلابتها الخرسانية وبرودتها المستعارة من برودة الأموات ولا أباليتهم .

من كرسيه الخشب ، تأمل العريف سلمان غروب شمس المعسكر بروح هائمة ، كان ينظر كل شبح يعدو خلل الشجر فيظنه رسول الأمر جاء يخبره حول جثة ذلك الجندي . انطفأ النهار وهدأت حياة المعسكر ولم يزل في انتظاره . راح الجنود يجهزون اسرتهم للنوم وآبت العصافير الى الاشجار وهي تشدو شدوها الحزين ، فاخرج هو ايضا فراشه أمام الباب ثم تعشى وشرب شايه من ترمزه الصغير وأبصر النجوم وهي تولد في السماء تباعاً ، واحدة أثر الاخرى ، وكان وجه الجندي لايفارق مخيلته : صفرة الموت وسيماء الجمود وحرقة الشفتين السواداوين . انه يراه في السماء وذرى الاشجار واضوية المعسكر ، ومع كل نأمة تصدر او صوت يعلو ، يتخيل انه آت من المغسل . توهم مرة سماع خطى ما داخل القاعة فارتجف جلده و وقف شعر رأسه ، لا من خوف فهو قد خبر شدائد لاتحصى في حياته ، انما من الرهبة .

تذكر انه نسي تشغيل مكيفي الهواء ، فقام من فراشه واشعل اضوية القاعة ودخل الى القسم الثاني حيث واجهته رائحة المغسل التي الفها منذ تسلمه العمل : العطر الحاد والمطهرات ومضادات التحلل وأمصال الجروح والبودرات والقطن والشاش ولفائف الاسعافات الاولية ، ثم بعض من القئ والصديد ونثار اللحم المحروق ، وتلك بمجموعها تملأ فراغ القاعة بنوافذها المفتوحة منذ العصر ، منذ انطفاء مكيفي الهواء للراحة . ورغم كل الجهود الدائبة لحفظ المغسل نظيفاً ، الا أن العفونة الحادة قد هجمت على رئتيه وملأت فراغ روحه الهائمة ، وهي نفسها التي لوثت حياته العادية منذ تسلمه العمل . رأى رزمة الاعلام واوراق التعريف وخيوط المياه المترسبة مع قطرات الدم الجاف داخل الساقية ،

وقاده بصره الى ارضية المغسل الاسمنتية فرأى صليبها المتقاطع الغائر في العمق ، الصليب الذي لمح فيه حياته السابقة كلها ، حياة الجندي العتيق الذي يعيش مجدداً ، تفاصيل بلا أمجاد ، لايستطيع أن يجعلها في أي من خانات ذكرياته . فيما مضى كان يجتمع بأهل قريته ليحدثهم عن حروبه التي خاضها والبطولات التي سمع بها وعاشها مع رفاقه ، منذ حرب الاكراد التي لم تورث سوى القمل وعفن الربايا كما ردد اكثر من مرة ، مرورا بحرب ٦٧ وانتهاء بحكاياته عن حرب ٧٣ . وفي الاونة الأخيرة سلكت حياته مسلكا يختلف تماما عما مضى ، فهو يلازم بيته أيام الاجازات ولايود الخروج أبعد من عتبة الدار ، ويقضي نهاراته نائما كي يهرب من أحلام يقظته ، حيث تقوده دوما ، وهو مايمقته اشدّ المقت ، الى تفاصيل حرب بلا امجاد يخوضها برائحته المستعارة من رائحة المغسل ودكته الاسمنتية .

أغلق الشبابيك وشغل المكيفين وتناول قنينة صغيرة رش منها سائلا رذاذاً وأرجعها الى مكانها في افريز النافذة ورمق الجثة الممدة على الدكة بنظرة متفحصة طويلة . تفرس في الوجه والجسد ، لاشئ ينم عن هوية خاصة ، الجرح نفسه ، والشفتان المحترقتان والصفار المرعب وآثار التحلل المقيت للجسد . فارق المغسل راجعا الى فراشه ، وكانت السماء قد أضيئت بنجوم الليل وبدرها مدورا كبرتقالة عتيقة . نبحت الكلاب خارج المعسكر وهمدت المدينة الصغيرة بين احلامها ورؤاها وها هو الليل يجنه ، ساهرا لم يزل ، يطالع السماء ويلقي نجومها كامدة وقمرها حزينا ، فيرحل مع شتات افكاره وذكرياته وقلقه ، يطلب النوم فلا يجده ، فكيف ينام جنب جثة مجهولة ؟ يسمع نواحها في ركود الليل رغم الموت ، وصوتها الذي لاتدركه اذن بشرية سوى اذنيه رغم خمودها الابدي . فتطالعه الوجوه المألوفة واحدا واحدا ، ابنه وزوجته ، وجه المقدم السمين ، وجوه الجنود الاحياء ووجوه الذين رش على جراحهم مياه

الحياة الفانية . خراب يا أبا داود ، وكان يريد ابعاد دثار الرائحة المحيطة بجسده ، الرائحة الملتصقة به اينما حل واينما ارتحل ، في المغسل وفي المعسكر ، في القرية وداخل فراش الزوجية ، روائح ووجوه كالحة وحياة تبتدئ من دكة الموت وتنتهي عند دكة الموت . قال الآمر : لا عليك ، ماهي أيام قليلة وتنتهي الحرب ، مرت الايام وتلتها الاسابيع والاشهر والسنون ، فلا الحرب وقفت ولاتعوّد المغسل وماعاد يمكنه الفكاك منه .

– من أي المدن انت ؟

سأل ابو داود الجندي الواقف جنب فراشه بصوت لايسمع ، لكن الجندي رد عليه بوضوح وبكل السيماء التي حملها سابقا ، آثار الخوف والصفرة ودمار لون الشفتين :

– أنا ! من كل مكان .

– لكنْ ، أليس لك أهل أم ، أب ، عائلة ، قرية ، مدينة ؟

– وهل للموتى مكان محدد ؟

– ماذا نكتب على تابوتك اذن ؟

– دعه فارغاً .

– لا يمكن . الاوامر الصادرة تنص على كتابة العنوان كاملاً . وهذا أمر جدي وخطر .

– وما أهمية العنوان اذا كان المرء ميتا ياأبا داود ؟

– له أهمية كبرى . فربما رحت خطأ الى عائلة غير عائلتك .

– وما الفرق . اذا لم يفجعوا اليوم فغداً . لاتنس ان حزن الضحايا يمر سريعا . فالأفضل لهم النسيان اليوم بدلاً من الغد . لأن حزن الغد سيكون أشد .

كان أبو داود نائما ، يضيئه بدر الليل مثلما يضئ السماوات والمغسل وأشجار اليوكالبتوس وبيوت المدينة . ضياؤه يتسلل رقعا صغيرة من خروم التوتياء المسقوفة بها القاعة ويسقط جنب فراشه .

عواء كلاب أشبه بالنواح وسيلان أشعة قمرية لدنة وصدى انفجارات ودوي بعيد ، بعيد جداً ، ابعد من حلم . هل هو حلم ام يقظة ؟ اكان الجندي يحاوره حقا ؟ اذن لِمَ لمْ يدلّ على هويته ؟ تساءل العريف سلمان بعجب وظل منغمرا بنومه العميق في انتظار أوامر المقدم ، وعلى مقربة منه ووسط القاعة المستطيلة الرابضة في احدى زوايا المعسكر حيث المدينة الصغيرة ، كان الجندي ينام ليلته الأخيرة . هانئا كان ، لايسمع دوي مدافع ولا انفجارات ولا أوامر . احلام فقط ، احلام ساكنة لا احد يمكنه التكهن بماهيتها لكنها أحلام تراءت له بلا شك ، لانها ليلته الوحيدة التي قضاها دون خوف . دون ألم ، دون ذكريات ، لا شئ سوى هدوء المغسل وبرودة دكة الاموات .

الحكايا

حكاية جدي : الفارس

ركبت الفرس ووضعت الخنجر ، أما البندقية فعلّقتها في كتفي وملأت حزام الجلد بعشرة مخازن رصاص . كانت بندقيتي أم كعيب حين أحملها لايخيفيني حي . ناديت على سالم فرّد من خلف جدار الطين : جاهز ، ناديت أبو الدنوسر فقال بصوته الشخين : سأشرب قهوتي وألحقك . فقبل ليلة أتفقنا نحن الثلاثة على غزو قبيلة بدو تخيم في الصحراء المحيطة بالقرية وروى الرواة أن رعاتهم يرعون الأبل قريبا من المقبرة .

بلمحة عين خرج موكبنا من تخوم القرية وأستقبلتنا الصحراء برمالها وهجيرها وكنت ألبس عقالا باربع شراشيب وكوفية بيضاء ترفرف في الريح مثل بيرق . جمل واحد يكفيني ، منيّت نفسي وكانت خيولنا تنهب البيداء مثل طيور برية وحداؤنا يشق عنان السماء . تجاوز ركبنا المقبرة ولمحنا الجمال من بعيد ترعى العاقول الجاف والحميض والعرعر ، فقلت لسالم وأبو النوسر : سندنو من القطيع على مهل متخذين هيئة عابري سبيل ، وهكذا إقتربنا وكان الرعاة منصرفين عنا بأمان المكان ، يلوكون الكلام في ظل عباءة نصبوها على شكل خيمة .

أدركنا خمسة جمال ألوانها تشع كليرات عثمانية فصحت على سالم وأبو الدنوسر : سوقوها وسأتبعكما للحماية . ركضت الجمال أمامنا وأحطنا بها مثلما تحيط الام بصغارها وسمعنا الرعاة يعولون ويطلقون الرصاص وهم يلوّحون بأعلام حمر لاندري لمن . لم نعرهم اهتماما يذكر واطلقنا لخيولنا العنان فغابت جمالهم عن النظر . ان هي الا نصف ساعة واذا الغبار يتصاعد خلفنا والرصاص ينهال علينا

كمسطر المزن . تعقبنا بضعة فرسان خيولهم نافرة كالرماح وبنادقهم لاصقة كالمنايا وكانت خيولنا ترش الفضاء بحصى حوافرها وتطوي المسافات طيا ، غير أن جمالنا الخمسة راحت تعيق هروبنا فتراخت عزائمنا واحدق بنا الخطر فأمرت بصوت عال : اتركوا الجمال وانجوا بجلودكم . وانفرط عقدنا وقادتنا المسالك الموحشة . دنت المنايا وانقضّت الفرسان مثل صقور كاسرة ، وراح احدهم يطاردني اينما وليت وجهي . ادخل شعباً فيدخل ورائي ، اتوارى خلف تلال الحصى فالمحه ، لا يكف دقيقة عن تصويب رصاصه الي . انحنيت على ظهر الفرس واطلقت لها العنان فقادني تجاه المقبرة وفي نيتي دخول القرية حيث لن يجرؤ الفارس اللحاق بي . رفعت جسدي لأريحه واذا برصاصة تطيح باحدى شراشيب عقالي وانتظرت الثانية التي ستردديني قتيلا وتتركني طعاما للوحوش . انتظرتها برعب لكنها لم تأت وحين التفت الى الخلف لم أبصر سوى السراب والافق ، ارتد الفارس يائسا فأوقفت فرسي وسط القبور وأمسكت عقالي لارى مكان الرصاصة انها اعجوبة موت لم يتحقق .

هدأ روعي وتطلعت علني المح واحدا من رفاقي غير أن الجهات خالية تماماً ، ليس الا الرمال والحصى وسراب المدى البعيد فاتجهت الى القرية وقلت لنفسي : الحي حي ولابد من وصوله والميت تجيء به الاخبار .

بعد ساعة من وصولي القرية جاءا : ابو الدنوسر يصهل مثل حصان وسالم يحمل جرحا طفيفا في زنده وجلسنا في مضافتي نحكي ماحدث . شربنا القهوة المرة ودخّنا بقلوب حسيرة على جمال تشع كالذهب . مر اسبوع على الغزوة وجاء القرية بدوي يبيع الملح على جمل أصهب ونقل لي كلام الفارس الذي طاردني قال : ذو الكوفية البيضاء لن يموت ابداً فهو ليس من بني البشر ، أقسم أنني كنت اضعها وسط رأسه لكنها تحيد كما لو ان يداً خفية تقول لها حيدي ، وهي أول مرة أخطيء بها طريدتي .

كانت هذه الغزوة آخر غزواتي وقد مات سالم وأبو الدنوسر منذ زمن بعيد وتغيرت الحياة ، ذقت مرها وحلوها وتجاوز عمري المائة والعشرين . لكن الأمر الوحيد الذي أخشاه هو أن تتحقق نبوءة ذلك الفارس .

حكاية الطفولة : ملك الورد

غرفة دافئة وخبز حار . عبق نافذ اليه أشعل جوفه بشهية لأكل الحادة . ومثلما عبقت رائحة الخبز في جو الغرف ، فأنها أنتشرت كذلك عبر اغطية النوم وحقيبة كتبه القماشية وحذائه المطاطي . بل وأحسها تسيل خارج البيت لتغمر الصفصاف وشجرة الجوري وأشجار الرمان وطيور الصباح المرتجفة . طبق من اللبن ، دم العشب أطلق عليه بمعته السرية ، ورغيف خبز وشهية متفتحة . فاقبل على كل ذلك بجوع الصباح الشتائي الذي يحسه كلما استيقظ من النوم . انهى فطوره وجمع كتبه ، خاصة دفتر الكتابة الذي نال منه انتباها استثنائيا ، وعلّق حقيبته في كتفه وخرج من الغرفة .

بزغت الشمس للتو ، شاهد أشعتها تتساقط على أوراق الخريف ، ذهب البساتين ، وأحس جسده سابحا بدفئها اللذيذ . تخطى ساقية الحديقة وراحت قدماه تدوسان أوراق الحلفاء بحذر ، تكسّران الصقيعان الجافة وتغوصان بالوحل الرخو . ماهي الا خطوات قليلة ويصل شجرة الجوري ، يصل وروده الخمر التي حلم بها الليلة الفائتة أكثر من مرة والتي ستكرسه اليوم ملكاً للورود على أقرانه . ملك الهدايا والورق الابيض المنتزع من دفاتر المعجبين بأزهاره . سيكون البيع وفيرا يغنيه عن

طلب دفتر جديد من أبيه ، ربما يجر عليه ركلات هو في غنى عنها أضافة الى المواعظ الثقيلة .

وصل الشجرة المثقلة بالأزهار وقطف الزهرة الأولى بأناة ودقة ، دسها وسط الحقيبة ثم قطف الثانية والثالثة حتى جاء على كل التويجات المتفتحة خلال ليلتين ، ليلتين قضاهما بأحلام معطرة بنثيث الجوري . وفي الطريق الى المدرسة شعر أنه ثري فعلا ، حقيبته مليئة بالورود وجسده سابح بالدفء ، ولشعوره ذاك كان يلقي تحية الصباح على من يلتقيه بمودة عميقة ويغازل سعف النخيل وينظر بود الى البقر . الشبابيك ، معاطف البيوت ، اتخذت لون الجوري والسوسن وأحيانا لون أزهار العلّيق ، وليحاكي صدح الطيور ، راح يطلق صفيرا حنوناً رقّت له عصافير النخيل وكادت تقع على فمه .

وفجأة ، همدت حواسه وتعطلت مشاعره المتوهجة وانبثق خوف الليلة الماضية كنتوء ضئيل في سماء روحه . حدث هذا حين وقعت عيناه على دفتره الصغير ، الدفتر المكتوب فيه حكاية جحا والحمار واجب القراءة لهذا اليوم . تضخم نتوء الخوف في روحه وطغى على لون الشبابيك وأنفاس الجوري ودفء الشمس ، فتثاقل من تحية العابرين وانشغل بالعقاب المنتظر اذا أكتشفت اللعبة . المعلم لايرحم وعصا الرمان لاترحم وضحكات التلاميذ الساخرة كم ستفجر فيه سخطاً على نفسه .

في ساحة المدرسة الضاجة بصخب التلاميذ ، باع نصف مايملك من الجوري وتجمع لديه خمس عشرة ورقة بيضاء ، وقبل دخوله الصف ناول معلم الرياضة أجمل وردة تفتحت في شجرته ، حيث شمّها المعلم بعمق وأثنى على شجرته الرائعة . بفرح حذر ، وضع كتاب القراءة مع الدفتر والقلم أمامه وتطلع الى التلاميذ بزهو ملك الزهور والاشجار والشبابيك والعصافير ، وقام مع التلاميذ عند دخول المعلم وفتح دفتره كما الآخرون وأنتظر دوره في فحص الواجب . لم يخف ولم يرتبك ،

وصفحة وجهه المشوبة بالفرح لم تُعكّر بهاجس من هواجسه السابقة . لم يدرك ان الفحص اجراء روتيني يؤديه المعلم دون اهتمام تقريبا . فتشاغل عن انتظاره بالتطلع عبر النوافذ الى الأرض الفسيحة ، أرض الشوك والدروب الضيقة والملح المشع في الأفق ، وشاهد ، في الطريق الذي وصله الى المدرسة ، رجلا متجها جنوبا تعقبه غيمة سيجارته الزرقاء وهي تغيب وتظهر بتواتر نال دهشته . غابت الغيمة الزرقاء وفجأة صوّت المعلم مداعبا :

– هل أكملت الواجب أم شغلتك الورود عن ذلك ؟

ودون أن يسمع الرد ، راح المعلم يقلب الدفتر بابتسامة رخوة تثاءبت على فمه الصغير ، وتسمّرت عيناه على الصفحة الاخيرة المليئة حتى السطر الأخير ، لكن عينيه وابتسامته المتواثبة وصفحة وجهه الحمراء عجزت عن العثور على نهاية الحكاية . همدت ابتسامة فمه وارتفع صوته الحانق :

– أين النهاية ؟

– انها كاملة استاذ .

من مسام جلده ، تراكضت قطرات العرق محملة بالملح والخوف ، وبدون علم منه امتدت يده وعصرت حقيبته القماشية فتناثرت تويجات الجوري بين أوراق الكتب وتلونت الصفحات بعصير إحمر . تلعبة انكشفت اذن ، وهاهو المعلم يزوي حاجبيه غضبا وتنفث نظراته المشابهة لنظرات أبيه ، صرامة جسّدها بصوت مسموع أدخل الرعب فيه :

– ماهذا ؟

صمت كجدار وارتعشت عضلاته ، وورود قلبه انسحقت كأوراق الخريف وود لو يغوص في ارض الملح أو يهرب الى الخلاء أو يستحيل غيمة من دخان . وأيقظته من غيبوبته صرخة المعلم على مراقب

الصف :

- أجلب لي عصا الرمان .

عصا الرمان ! يعرفها جيدا مثلما وجوه الاقرباء وواجهات البيوت ودورب الليل ، العصا الناعمة كأفعى ، القاسية في راحة اليد قسوة شوك العليق ، ستلتصق بجلده كدبور أحمر هائج ، تلدغ ورده الداخلي المسحوق وتحيق بالورق الأبيض والأحلام المتجمعة على امتداد ليلتين بالكامل . شرع المعلم بالضرب ، وقال لنفسه : لا تصرخ . كيف يصرخ وهو ملك الورد والورق ونحل الزهور ومبتكر الافكار الغريبة التي ماخطرت لأي من أقرانه ؟ وصفه المعلم بالكذاب والسارق والوقح وبائع الورد وفكر انه لم يكن أي من اولئك اللهم الا بائع ورد ولاتحمل الصفة الأخيرة اهانة له .

قدر انه ضرب أكثر من الف مرة ، ولما أيقن أن معلمه لن يتوقف وأن أعصابه فلتت عن زمامه صرخ بألم صراخاً حاداً فكف المعلم وألقى عصاه .

عرف المعلمون والتلاميذ ماحدث ، تشفى بعضهم ونظر البعض الآخر باعجاب ، لكن الكل اقر بذكاء فكرته الغريبة في الهروب من واجب ممل ، وداعبه معلم الرياضة في الدرس الأخير قائلا :

- تذكر دائما شجرة الرمان .

وهو راجع الى البيت ، ظل طوال الطريق يلعن شجر الرمان وألوان الشبابيك ونحل الازهار وأوراق البردي وجميع الحكايات . كشّر للعجائز المتربعات على عتبات البيوت وصمّ أذنيه عن تحية العابرين .

حكايتي : المُغنّي

في السفح الجميل ، السفح المواجه للجبال المتوهجة عند الغروب بالاحمر ، يقع المقر بغرفه الثلاث الصغيرات . احداهن ضمت المستشفى وكان الثوار والفلاحون يعالجون فيه والغرفة الثانية أحتلها مخزن التموين : رز وسجائر وطحين واسلحة وعتاد . وحوّل الثوار الغرفة الثالثة الى غرفة عمليات ، الا انهم ارتأوا أن تكون الغرف كلها مكاناً للنوم .

عند انتهاء العشاء ، يُشرب الشاى وتُوزع الخفارات . ينظر آسو في الوجوه ، الوجوه الأقرب الى روحه ، يشير اليهم بطرف خفي ويبتسم ابتسامة خفيفة تتحول في عينيه الى بريق ذي وهج خاص . يفهمه الأقرب الى روحه ، ويتململ آسو في مكانه ويخرج من الغرفة الثالثة بعد استئذان الآخرين .

انها الغرفة الثانية ، يُضاء فانوسها ويُحط أبريق شاي الليل على نار هادئة وتنتظم دائرة الوجوه حول الفانوس ثم تنبعث الهموم والحكايات من المكامن العميقة . حكايات عن مقاتلين آخرين ، عن مدن أخرى تنسج في العتمة ، عن أسماء وتواريخ وأحداث . تمر اللحظات وينقشع السقف وتتهاوى الجدران لتصبح الغرفة بوجوهها وعتادها وذبالة فانوسها المتراقصة ، فضاء شاسعاً تسبح فيه أحداث الأرض كلها . في الكأس الأولى ينظف آسو حنجرته وفي الكأس الثانية يزيغ بصره ليخترق فتحة الشباك متطلّعا الى نور القمر وسماء الصيف والنجوم اللاهثة . يتخذ وجهه تعبيرا جاداً كمن يهم بالاقدام على أمر جلل . يئن بلحن خفيض ، هو الى مناجاة المعشوق أقرب ، فتنطبق الشفاه معلنة انصاتها ، خشوعها العميق لهذا القادم من الليل ، المتلعل في سماء الجبل .

- آمـان آمـان آمـا آآآ ن .....

يغني آسو ، علواً وانخفاضاً وحزناً ، موّلات غزل لحافظ الشيرازي وسعدي والخيام ، ثم ينشد أغاني من الفلكلور الكردي بايقاعات راعشة تتكسر كشلّالات، سكب فيها هدوء الجبال وضوء القمر شجن المقاتل وهمّ البندقية ونواح الضحايا وفراق الاحبة الطويل . ومن خلال التهويمات والاحلام التي لها تعرجات الطرق والكهوف ، يسرق آسو الحضور الى أغانيـه العربية الخفيفة فيهلل له الحاضـرون مصفقين :

- آه آه آه .

الصوت يمضي الى الليل والليل يزحف نحو صبـاح جبلي مفضض . يحس فيه آسو بتعب حنجرته ويبادر اقرب شخص لأبريق الشاي :

- اسقنا من الخمرة .

فتسارع اكثر من يد لرص الكؤوس مجدداً ، وهنا يتوقف النشيد ويأتي فاصل من الضحك والراحة . في الاسفل ، وعند الوادي الخفيض ، ترقد أشجار العفص والتين والعنب تحت القمر المخضر بوقار ، ولا يسمع وسط متاهات الجبال وهدأة الحياة ، سوى صوت آسو . انه يمسح بآهاته أوراق الأسبندار وعناقيد العنب وأسلحة المقاتلين وقلق المهرب ورابية الجندي الخائف والطرق السرية الموصلة بين مدن العراق والجبال . ويلتقي صوته المنفلت من فتحة الشباك كل ليلة مع أصوات مغنين آخرين ينشدون لليل والبندقية والقمر الاخضر ، فيتشكل كورس ليلي عجيب يدعونه في المدن والقرى بكورس المقاتلين أو أنصار الجبل .

خنزير المساويء

بعد انفضاض المدعوين ، وقف خليفة وسط حديقة بيتهم المقمرة ، موزعاً بين احساسين متناقضين ما كان يجرؤ على الركون الى أيّ منهما . احساسان دخلا قلبه منذ وفاة ابيه قبل سبعة ايام : الحزن عليه بعد إلفة ثمانين سنة ، لحيته البيضاء وقمه المقبوض على الدوام كأنه يستطعم مرارة لاتزول ، ومشرب سجائره الخشبي وهو ما كان يصنعه من خشب التوت ويزخرفه بسكين رفيعة كي يزيده جمالا ، وضحكاته المدوّية كرنين النقود . في الوقت ذاته لايستطيع التغافل عن احساسه بالغبطة ، ولو انه حاول اخفاءها عن أعين الناس ، غبطة الخلاص من عبء ثقيل ظل يعيشه يومياً منذ انبثاق الصباح وحتى ساعة تدثيره بالاغطية قبل النوم . كان يحمّمه مرتين في الاسبوع ، يجهزه بالتبغ ، يسمع مضطراً مواعظه الثقيلة التي لاتطيقها اذن والتي جعلته موضع تندّر القرية وتشهيرها . لم يدر لم حمل أبريقه وخرج الى الحديقة . فبعد توديع آخر رجل من القرية دفعه هاجس ما لمغادرة البيت ورؤية الصحراء التي ضمّتْ رفات أبيه والذي تمنى موته من عشر سنوات خلتْ ، قبل ان تفقد أطرافه امكانية حمل جسده وصار يدبّ على الارض كحشرة كبيرة . هيكل عظمي زاحف ، وصفه الشاعر ملاّ علي وهو يرتشف قهوة التأبين المرّة ، محدثاً الجالسين عن أخبار الاولين ، وكان محقاً في وصفه . القرية حوله ، مدى ابيض واجمات بردي وبساتين وأضواء مصابيح كهربائية احالتْ ضوء القمر الى ضوء شاحب مخدّر ، دفعه للتفكير بحياته المقبلة ، بعيداً عن أنفاس ابيه الميّت وصدى الندب والرثاء والعويل على امتداد ايام سبعة ، وهو ما شكّ بصدقه كل الشك .

ولأن بيت خليفة واقع في اقصى القرية ، لذا لم يعجب لعمق الوحشة المُرينة حوله ، الوحشة الاكثر وطأة التي يحسّها الانسان قرب

بيت ودّع احد قاطنيه . تخطى الصف الاخير من اشجار الرمان وزالت عن عينيه عتمة اشجار حديقته المكدّسة عبر الأغصان والسيقان والسعف ونبات السيسبان ، وللمرة الثانية منذ وفاة أبيه ، وقعت عيناه على ذلك الحيوان البرّي واقفاً قبالته ، محدقا اليه بعينيه الناريتين . بَسملَ وحوقلَ وذكر كل ماحفظه من الآيات والتعاويذ ، وقال بصوت أجش خائف :

– خنزير !

خنزير لم أر له مثيلاً في حياتي . قصّ خليفة ، بعد ذلك ، حكايته مع الخنزير البرّي في اكثر من مكان : في الباص الخشبي الموصل بين القرية والمدينة ، في حقل الذرة ، عند ماكنة المياه ، بل ذكرها لكل من التقاه في طرقات القرية . لكن ما الذي يبتغيه خنزير برّي في هذه اللحظة وسط الليل البهيم وسكون القرية ؟ تصلّبتْ يده على ابريق الماء ، مسحورا بالعينين الناريتين العاكستين لضوء القمر ولوحشة الحقول ولرتابة المدى البعيد الممتد بين البيت والصحراء . ولانه ليس من الحكمة الوقوف بمواجهة خنزير متوهج العينين ، كرّ خليفة راجعاً الى البيت واستقبلته مضافته المطفأة الانوار ، المعبأة بضحكات المرحوم الجاثمة في زواياها وعبر سجادها المعلق على الحيطان ، فدّس جسده في الفراش الحار الملقى على الارض ، بعد ان رتّج بابه باحكام .

حلم احلاماً مزعجة ، وايقظه اكثر من مرة جفاف حلقه الملتهب بنار احلامه ، فقام لشرب الماء من زيرهم المركون خارج البيت ، وحين أفاق من سباته ، الفى جسده مبللاً بالعرق ، والشمس مشرقة يرى نورها من مكانه . الشمس في الخارج والعرق داخل فراشه ، النوافذ مفتوحة على الليمون والتفاح وسعف النخيل المندّاة بفجر أيلولي رائع ما شهدته القرية قبلئذ ، وعقله المنغلق على خنزير برّي وقف بين بيته وقبر أبيه ذي الشاهدة الحجرية . أيقظ زوجته وأبنه صلاحاً ثم توضأ ونظّف مسحاته من طين القبر واتجه الى النهر .

شاهدت الخنزير الأول والأخير في حياتي قبل ثلاثين سنة . كنت والمرحوم نسقي ارضنا القريبة من الصحراء ، الا انه لم يكن متوهج العينين ، قال خليفة لملاّ علي الشاعر وجاسم الوزان ، وهم جلوس قرب مجرى المياه السائب من الماكنة المنصوبة على النهر . صمت خليفة متلهفاً سماع مايقوله الشاعر عن حادثته الفريدة التي لم يحملها محمل الجد أول مرة رأى الخنزير فيها . أجل ان الشاعر سمع عن ذلك الخنزير مثلما سمعت به القرية كلها وأعتبرته سوء تقدير أو خطأ في الرؤية من خليفة نفسه ، الا أنه لم يستطع السكوت عن غرابة ظهور خنزير وسط البيوت . حدّق الملاّ بعينين ساخرتين الى النهر ومسيل المياه الازرق ووجه خليفة كمَنْ ينسّق افكاراً متضاربة لينتقي فكرة صائبة . كان الملاّ مطيلا سكوته المحير ، وقد قال اخيرا :

- ومسخناهم خنازير وقردة .

لم يفهم خليفة قول شاعر القرية الذكي ، ذي القصائد الذائعة الصيت التي رددتها عشرات القرى المجاورة . هل هي قصيدة جديدة ايها الشاعر ام نبوءة ام آية قرآنية ، تساءل خليفة في السرّ ولم يدرك الا بعد فوات الآوان ، أن الشاعر عناه هو ، عنى خنزيره البرّي ، خنزير الاساءات المرتكبة على امتداد حياة المرحوم .

- يوما ما سنذهب لرؤية قبر أبيك .

قال الملاّ وأيده خليفة دون علم مسبق ان حكاية الخنزير ستدور القرية على كل فم ، مشبعة بالتفسيرات والظنون . فبعد ايام على تلك الليلة المضاءة بقمر أيلول الشاحب ، ليلة رؤية الخنزير ، وفي حقل جتٍّ من حقول القرية مليء بالفراش الملوّن ، كاد ذلك الخنزير ان يصير فراشه غير محسوسة لها سمات تشبه سمات المرحوم . حدث ذلك حين راحت فخرية تروي ، بنشاط واندفاع ولذة ، عن تلكما العينين اللتين رآهما خليفة . جمرتان مثبتتان على وجهه ذي الخطم ، كانت حوافره

تدق الارض مثيرة الغبار من حولها ، تقول فخرية ومنجلها يدور على سيقان الجت الطرية بشهية مثلما يدور لسانها بالكلام عن المرحوم وبيت خليفة ، محدثة جارتها ذات العينين اللّوزيتين كفراشتين نادرتين .

- كيف يصير الانسان خنزيرا ؟ هذا لا يصدق .

تقول الجارة وهي تعلك ساق جت غض .

- تفسير الملاّ لا يخطيء . اليس هو الشاعر وقاريء القرآن وعاقد الزيجات والمصلّي على الموتى ، هو الذي صلى على جثمانه وكتب شاهدة قبره فكيف ينسب سوءاً اليه لو لم ير ذلك بعين عقله ؟

- صحيح ان المرحوم من أسوء الناس الذين عرفناهم ولكن .....

- ذهب وفضة

- آراض وبساتين

- كنوز دفنها في جدار البيت

- يأكل الربى

- يتثاقل من تحية الناس

- لكنْ ... المرحوم ليس الوحيد في القرية .

- سننتظر موتهم ونرى .

تقهقه فخرية وتثبّت المنجل في الارض الجافة ثم تجمع حزم الجتّ وتحشوها في عباءتها الصوف ومثل فراشة تروم لحاق رفّها المزركش تطلق الجملة الأخيرة في الموضوع :

- اذا صحّ ان الملاّ سيذهب لمشاهدة القبر سأرافقه . اريد ان ارى بعينيّ .

حشرجت تراكتورات الدريس في الفضاء معلنة انتهاء اليوم ، وتعالتْ اصوات النسوة ينادين ابناءهن الى البيوت ، عاد الفلاحون من عمل الارض ، وكانت الفراشات وبينها فراشة لاترى ، كل ماتبقى من

صيل هذا اليوم داخل حقل الجت .

تحت دالية العنب ، الشبيهة بكوخ صغير سقفه عنب ذات ثمار حمر وبنفسجية وبيض ، وعلى مدى ساعة من وقت العصر ، ظلّ ملا علي الشاعر وجاسم الوزان وفخرية وزوجة الشاعر المحدودبة الظهر ، يشربون الشاي ويتحدثون ، ومن بينهم ، كانت فخرية الوحيدة التي خمّنتْ ان الحديث سينعطف اخيراً الى حياة المرحوم وموته . هي وأن لم تأت لسماع المزيد عن الموضوع ، حيث أن واجب زيارة حفيد الشاعر المولود قبل ايام شيء لابدَّ منه ، الا أنها راغبة كل الرغبة في معرفة ماشاع عن تحول حسين الى خنزير ، ومن فم الملا خاصة . اذ هو الاعلم بهذا الامر ، والوحيد الذي عزّز الظنون في القرية ، وعمّق التفسيرات ليجعل القضية حقيقة لايطالها الشك .

حدثهم جاسم الوزان عن سخونة الصيف وجفاف النهر ومحصول النخيل هذا العام ونتف من اخبار العالم ، الا انها لم تقتنع بالحديث ولم تشارك فيه عن رغبة ولذة ، بل أحست بأن ليس فيه من لاثارة كلمة واحدة . نهضت زوجة الملا من مكانها وجلبت ماعونا من النحاس وراحت تقطف عناقيد العنب من الدالية . غسلتها بالمياه ووضعت الماعون وسطهم وكانوا جلوساً على مفارش من الصوف .

- انه لم ينضج جيداً مع ان الصيف حار . قال الملا .
- أحلى من العسل . قالت فخرية .
- انظري لونه ، اليس فجا ؟
- ستموت ايها الملا وتخلّف وراءك دالية العنب وغيرها .
- سبحان من لايموت . قال جاسم الوزان .
- لكن لانصير خنازير .
- ذهب وفضة .
- كنوز تحت البيت وبساتين ، ربى وأكل حرام .

- انت حقود لا أكثر .

- على أي شيء أحقد يا فخرية ؟

- انت لاتملك سوى قصائدك .

- لو لم تكوني سيئة ماتزوج المرحوم عليك ثانية .

ضحك جاسم الوزان وشعرت فخرية ان الحديث اصبح رائقاً ، فسألت الملا بوجه جاد :

- كيف يصير الانسان خنزيراً ؟ هذا أمر لم نسمع به قَبلُ .

- لم لا ، اذا كانت حياته قبيحة . كيف لأرض تقبل بجوفها انساناً يحمل شروراً كالتي حملها حسين في حياته ؟

- لا اصدق الامر .

- عناد الراعي شاهده ايضا .

- اتذكرون قتله للبقرة حين وجدها ترعى الشعير خلف البيت ، في نفس المكان الذي زرع فيه الحديقة بعد ذلك .

- نذكر .

- كان يطعم عائلته الخبز واللبن لا عن شحة مال . هل سمعتم طوال حياتكم عمّن عاش على الخبز واللبن ؟

- لم نسمع .

- كيف لايقتل البقر ، من يُسمّر إذن إبن أخيه في جذع نخلة الزهدي لانه وجده يأكل منها ؟

- كيف لايقتل البقر ؟

- وتتهمينني بالحقد يافخرية ؟

عندما خبا أمل فخرية في سماع المزيد ، وعندما أبصر جاسم الوزان انحدار الشمس خلف غابات النخيل ، انفرط الجالسون من تحت الدالية في غروب ذي ظلال طويلة ، ورائحة حادة تنبعث من السواقي وحقول الجت والبرسيم . وفي غروب مشابه ، سماؤه حمراء اكسبت

الحقول المحصورة بين القرية والصحراء لوناً بنّياً وجعلت الفلاحين يحدّقون في الافق بدهشة ، شاهد عناد الراعي ذلك الخنزير البري المتحدّر من الصحراء ، حيث المقبرة بحصاها ورملها وأعشابها الجافة . شاهده حينما عاد بأغنامه ، وهي كل ماتبقى من ارث القرية الرعويّ ، ماشياً جواره وقد ظنّه كبشه الضخم . عيناه كعيني المرحوم حسين ، كبيرتان ، ملتمعتان ببريق مرعب ، ولو قُدّر للحية بيضاء ان تنبت على خطم خنزير لقلت انه هو . ومثل الكثيرين ، لم يصدق عناد الاشاعة المحوّمة في فضاء القرية ، لكنه الآن يبصره ماثلاً بوضوح ، مثلما الشمس الغاربة واضواء القرية وأغنامه وأشجار الصفصاف . خنزير ذو خطم طويل وحوافر صلدة ، يدق الارض وينوي خسفها ، يقف متوثباً ، يمسح بعينيه جمرتي الغضب والوحدة أفق الحياة الأحمر وخيوط الظلام المنحدرة مع الظلال الطويلة ودقائق الرمل المتصاعدة من الصحراء وعتمة بيت خليفة المحاط بالاشجار . أمسك عناد عصاه وهمّ بتوجيه ضربة اليه ، الا انه انثنى خجلاً ، فكيف يضرب الميت ، الشيخ الطاعن في السن ، بالغ الثمانين ؟ قال عناد لاحقا . وبطرفة عين ، لاذ الخنزير بالفرار ، راكضا نحو الرمال والسراب والليل القادم ، وسمع عناد صوت ملا علي قادما من بعيد ، من عمق أيام ولّتْ (لم لا يكون خنزيرا اذا عاش طوال حياته خنزيراً) وأقسم الا يكون سيئا بعد اليوم . بزغت نجوم السماء وعلمت القرية تفاصيل ماجرى . تناقلتها الافواه والألسن والهمسات والتنهدات والاصابع الفلاحية المشققة ، وآمنت اكثر من ذي قبل انه كان يدق الارض بحوافره لاكما تفعل الخنازير الاخرى ، ويحرق بعينيه الحمراوين خضرة السعف ، النبات ، اجنحة الفراش ، ضروع البقر وافداء الامهات الصغيرات ، ومرة أخرى أوحى الشاعر لمن حوله قائلاً :

– ومسخناهم خنازير وقردة .

تكشّفتْ لخليفة السجادة الخوصية المعلقة في الحائط بألوانها

الحمراء والخضراء والقهوائية عبر ضوء الفجر المنسكب عليها من الشبابيك بحذر ، وبان ايضا ابريق المياه وطاولة الضيوف وكراسي الالمنيوم ، ومن النوافذ طالعته أشجار النارنج والتوت ونخلاته المنتصبة وسط هدوء الحديقة الشامل . انحدر به بصره ، وهو لم يزل في فراشه ، الى الشمال ، نحو الافق الرملي الممتزج بالسماء الزرقاء حيث القبر الذي لم يجف ماؤه ، فامتلأ بأسف هائل لضجره منه ذات يوم . فالانسان لايملك القدرة على الشيخوخة القاسية وهي ترسم آثارها عليه وكذلك كان أبوه ، اذ لم يكن بمقدوره تجنب مصير كهذا . نهض من فراشه وتوضأ ، ثم أدى صلاته بذهن شارد وعقد عزمه وهو على سجادة الصلاة ، بالذهاب الى القبر وقراءة الفاتحة . فبالرغم من غبطته في الخلاص من لعنة مساوئه التي عرفتها القرية صغيرها وكبيرها ، الا ان ذلك قد مضى ، مضت الآثام الى القبر معه ولن تعود ابدا . وبدعاء قصير على روح الميت ، انهى صلاته وعلق سجادته ، ثم ايقظ البيت وافطر باكراً ، حيث ان عليه الذهاب الى المدينة لشراء حاجات للبيت تعيد له نظامه السابق بعد ايام فوضى التأبين .

عند رجوعه ظهراً من السوق ، استقبله ابنه صلاح باكياً وقال له :

– لن اذهب الى المدرسة بعد اليوم .

– ما الذي حدث ؟ سأله بدهشة وهما ينحدران من الطريق الرئيسي نحو البيت .

– الطلاب ينادونني يا ابن الخنزير .

وفي تلك الظهيرة الحارقة ، عرف خليفة من فم زوجته ما أشيع عن المرحوم في القرية . قصّت عليه رؤية الراعي للخنزير الحامل صفات ابيه ، بعينيه المتلظيتين كجمرتين ، السمات الغريبة نفسها التي رآها هو لاغيره تحت ضوء القمر . هذر في هذر ، قال لزوجته وقرّر مع نفسه

اطلاق الرصاص على ذلك الخنزير ، الشيء الذي فعله عند مشاهدته له في فجر اخر لايختلف عن اي فجر أيلولي مرّ على وفاة أبيه .

مع انطلاق الخيوط الأولى للضوء ، سمع كل من كان خارج سريره ، اطلاقة الرصاص المدوية وسط هدوء الفجر وطمأنينته . طلقة وحيدة أعقبها نباح الكلاب وهمسات الفلاحين وتساؤلاتهم . وقتها كان الدجاج ينشد بصوت جماعي تلاوة يوم جديد ، وملا علي الشاعر يستعد للوضوء محاولاً نسيان حلمه العجيب عن خنازير لاتحصى غزتْ القرية وعاثت بها فساداً . جاسم الوزان حث خطاه للّحاق بباص القرية ، الملاّيات احضرن اوعيتهن لجلب المياه من السواقي ، الحشّاشات بحثن عن مناجلهن ، ومازال صبيان المدرسة يغطّون في نوم عميق . وكما ان الاحداث لاتُخفى ابداً عن القرية مهما صَغُرتْ ، كذلك فأن خبر تلك الطلقة سرعان ماسرى الى البيوت أجمع . لم يفسرها احد كما كانت تفسر من قبل : موت أحدهم او صيد بط او أغتيال امرأة زانية ، فطلقة هذا الصباح ، طلقة خليفة ضد الخنزير البري ، طلقة الغضب والحقد ومحاولة اغتيال تلك الشائعة الكريهة التي ظلّتْ تأكل قلبه مثل دودة سامة . قيل ان خليفة ايقظته من نومه طرقات على الباب ، خفيفة خفة الخيوط الفضية للفجر ، مثل قأقأة الدجاج وثغاء الاغنام وترجيع صوت ماكنة المياه . فتح الباب وكان الخنزير امامه مثلما شاهده قبلئذ ، نفس حوافره ، نفس عينيه ، خطمه وقوائمه ، نظرته المتوسلة الغاضبة المتألقة . دخل البيت وأحضر البندقية ، ثم أطلق على تلك الدودة الناخرة في قلبه . دودة الآثام والعار ، وقد نَمتْ منذ مجيء أبيه الى الحياة . قيل أصابه في فخذه فسال دمه في الحديقة ، وقيل ان جرحه رسم خيطا دموياً أحمر ، يبتديء من نخلة الزهدي وينتهي عند قبره ، حيث توارى قبل صعود الحافة العليا للشمس عن خط الافق . ولم يجزمْ أحد على رؤية الدم عياناً ، لكنْ ، يؤكد الجميع أنه كان موجوداً وتوارى بفعل الرياح

والتراب والحرارة ، ولربما لأنه ليس من دم البشر قالت فخرية .

– هل سمعت الخبر ؟

قال فلاح لجاره وهما يقلّبان بمذراتيهما كدس القمح ، في الخلاء المحصور بين مدرسة القرية وبستان النخيل ، وجعل صوت التراكتور ، الذي يزأر دائراً بآلة الدرس ، التحاور بينهما صعباً .

– ماذا ... ... ؟

– غداً يذهبون لرؤية القبر .

انسحقتْ السنابل الصفراء تحت ثقل آلة الدرس واستحالتْ السيقان الى تبن لاصف ، ومثلما هدرتْ الآلة في القرية كاشفة عن ثقل الحرارة وعمق السكون الموجودين على السعف والنخيل وثمار الليمون ودلاء المياه الملقاة على عتبات البيوت ، فأن أصواتاً ما لاتختلف سوى بعلّوها ورنينها ، شاورت بعضها عن رحلة الغد التي سيقوم بها خليفة وجاسم الوزان وشاعر القرية ذو الفم الذهبي ، مع ذات الكفل العريض فخرية الارملة ، الى القبر ، حيث يستجلون سرّ التحول وصدق الظنون . شائعة تلك التي انطلقت أم ثمت خنزير بري لاينتمي الى فصيلة الخنازير انما الى اصل بشري مسخته آثامه وأبت ارض الصحراء ضمه بين ذراعيها ؟

رفض ملا علي الذهاب الى هناك ، أكد الفلاح الضئيل لجاره الممسك بمذراة الخشب ، فتوسل به خليفة ليلة كاملة مذكّراً اياه بوعوده السابقة . لا أحد يثق بي ، قال خليفة لملا علي ، انك من يعقد الزيجات ويقرأ القرآن ويصلّي على الموتى واشعارك تحفظها الناس . وفكّرَ الشاعر بانها احدى واجباته الدينية وانه سيلقى ثوابه على هذا العمل في الحياة الاخرى . فسيلغي الظنون غير الصحيحة أو يؤكدها يرفع عن كاهل خليفة وزر حياة شنيعة شيعيشها ليل نهار ولن تنفعه تركة ابيه من ذهب ونقود وأملاك وبيت هو أفخر بيت في القرية ، أو يؤكد ما قيل ، حينذاك ما على خليفة سوى حمل جثة من المساوي، تحدّر هو من صلبها .

- تأتيني ام آتيك ؟ سأل خليفة ملا علي .

- سآتيك أنا ، فبيتكم أقرب الى الصحراء .

وعند الضحى سارت القافلة البشرية الى القبر .

سارت تحت شمس خانقة الحرارة ، مخلّفة وراءها حياة القرية بجريانها اليومي ، الاطفال مضوا في الدروب الى المدرسة ، والباص الخشبيّ رحل الى السوق ، ومياه النهر تدفقت في الحقول . داعبتْ زوجة ابن الشاعر وليدها الجميل ، وهدرت ماكنة الدرس على الكدس المنشور بين البستان والمدرسة ، الا ان احداً لم يستطع الكف عن الحديث حول ذهاب جاسم الوزان والشاعر الذهبي الفم وفخرية ذات الكفل العريض وخليفة وارث المرحوم الوحيد ، الى القبر .

- لم أعدْ أطيق الخروج من بيتي .

قال لهم خليفة .

- وفي المدرسة صاروا ينادون ابني بالخنزير .

- كنت انصحه دوماً : كف لسانك عن الناس واعمل الخير وترفّع عن صغائر الدنيا ، فالحياة سرعان ماتزول ، والسيئات هي الباقية ، وانت قادم الى قبر مظلم ونومة أبدية .

- لا أحد يدّعي العصمة ايها الملا . قال جاسم الوزان .

- ان ما قيل ليس اكثر من حسد ينخر القلوب على ثروة ميّزت المرحوم عن الفلاحين .

قالت فخرية مشيرة بطرف خفي نحو الشاعر ، ناسبة اليه توسيع الشك وتعميق الايمان بالشائعة . حكت ذلك بهمس لم يسمعه الماشون حولها سوى خليفة . وكان خليفة سابحاً في بحر خيالاته ، المتصاعدة كفوضى التأبين . يمشي بقلب وجل يدق ويزأر مثل ماكنة الدرس ، كلما اقتربت خطاهم من الصحراء . عبروا الحقول وأحسوا بألسنة الحرارة المنبعثة من الرمال تلفح وجوهم ، وصارت القرية وراءهم ،

كتلة من الشجر سوداء أو خضراء أو ليلكية ، وبان خلفها ذلك الخيط الازرق الذي هو النهر ، شريان الحياة لخضرتهم واشجارهم ، دورهم وأبقارهم ، امواتهم وأحيائهم ، النهر المحدق الى الصحراء بوجل ، رأوه كما الخيط حين اشرفوا على القرية من رابية الصحراء المترية . وفي اللحظة التي ابصروا فيها القبور ، طارت من تحت اقدامهم قبرة رمادية فارشة سيل ريشها على الحصى والرمال والقبور العتيقة والاعشاب المحترقة في لهيب الصيف ، وشعر خليفة بثقل يطبق على رجليه ويمسك عضلاته المستوفزة ، ثقل جدلت نسيجه الرمال والقبور وظنون القرية القاسية وشائعاتها ، سيمحقه محقا ويحيله شظايا بشر . فقد مات الميّت وطوت الارض آثامه وخيراته ، رفاته وسماته ، لحيته البيضاء وضحكاته المرنة كالنقود ، لكنه هو الباقي ، هو الحاصد والساقي ، الماشي في طرقات القرية المجيب الدعوات والمتكلم مع الناس . فبأي وجه سيقوم بكل هذا وبأي لسان سينطق ، ان صحّتْ الشائعة وكان القبر فارغاً .

بدخولهم المقبرة ، قرأوا الفاتحة واستولى عليهم صمت الموتى فصمتوا هم ايضا ، وكانت القبور متشابهة كلها ، مطلية بالخضاب الابيض ولها نفس الارتفاع والطول تقريبا . مضوا بحذر بين القبور وكادت فخرية ان تسحّ دموعاً حارة على زوجها المتوفي ذي القبر العتيق ، لكنها تمالكت روحها حين رأت قبر المرحوم حسين منتصباً امامها ، اجّلت عبراتها ليوم غير هذا اليوم . دار الملا حول القبر ولمس باصابعه خضابه الجبسي ، تطلع في الوجوه بعينيه الحادتين ولحيته الصغيرة ، ووسط صمت القبور ورائحة العلّيق الصحراوي المتنفسخ ودهشتهم أجمع ، قرأ الشاعر بفمه الذهبي الكلمات نفسها التي خطّتها يده بمداد أسود على الشاهدة ، يوم موت المرحوم : هنا يرقد حسين عطا الله المتوفي عن عمر يناهز الثمانين .

ثمار البلوط

على طريق دبق : طريق صار طيناً وثلجاً وآثار اقدام وحوافر ، كانوا يسيرون . وكان يسري في دمائهم صقيع صباحي بارد لجبال مكسوّة بهياكل أشجار البلوط والعفص والأسبندار . ثلاثة رجال يسيرون تحت سقف من غيوم خفيضة بلون الرماد ، وكان أحدهم يحمل قفصاً في يده ويلبس فروة خراف شفقيّة اللون . انه يؤرجح طيره المُلّون ، طير القبج ، فوق هاوية الوادي ، وقد برزت خلف طيره المهّوم على النهر ، ثلوج بعيدة ، كلّلتْ قمة جبل قنديل المضببة . وثلاثتهم كانوا في خشية من نزول المطر .

– ليس من السهل الوصول الى مدينة سَردَشتْ اذا نزل المطر .

قال علي محدقا بسحب الارجوان وبروقها ، ملقياً نظراته الاخيرة على جبل قنديل بمزاج يائس قلق . فعند سفح الجبل ذاك ظل حزنه معلقاً على شجرة بلوط ضخمة توارت فيه العظايا وذكريات الثوار ، فهو يخشى المطر وحافات الصخور التي لها أسنان ومخالب ، ويحلم بشمس دائمة ونوافيرَ من الازهار .

– دعه ينزل . هناك قرى في طريقنا يمكن المكوث فيها .

قال حامل القفص ، وهو يعلم أن هناك مساجد وبيوتاً للجوّالين والمشردين في الرقعة الحدودية ، ثم تابع قوله :

– مطر أو من دون مطر ، ليس لنا المشي في الجبال دون دليل .

– الدليل هناك ياصديقي ، ردّ مصطفى ، في السوق .

– نعم اما أن تكون ابن الجبل ، أو أنت بحاجة لدليل .

قال حامل القفص ناظرا الى القاع ، حيث يجري النهر الصغير راكضاً . أحصنة من مياه محمحمة تنشر أعرافها بين صخور منقوشة

بالسنين والمعادن . سلسلة من الفضة الهابّة من كل واد ، من السوق وجذور الجبال وعروق أشجار الجوز الضاربة في الاعماق ، من مكامن جبال ميّدية المنشأ مطرزة بأعلام الأنتصار والغزوات ، سلسلة تمرق خلل الصفصاف يرمقها الطائر بعينيه الصفراوين فتتكوران وينفلت من الاسر . تحت جذر صفصافة كانت أنثى قبج تهدل ويسمع حامل القفص هديلها المرّ ويلتفت الى النهر ، وبعد برهة صمت نقر القبج قضبان الخشب بمنقاره المتهور وعض على خيبته .

– لماذا تريد الذهاب الى سردشت ... خاطب مصطفى حامل القفص متشككاً ، وهو يرمقه بقساوة نظراته التي تعلمها من الجبل – في طريق وعر وعاصفة منذرة ؟

– قال لي فلاح في احدى القرى : أنت مجنون ، قهقه حامل القفص ، عندما أخبرته أنني ذاهب لبيع طائري . الاسعار خيالية ياصديق ، خاصة لطير مدرب مثل هذا . وبأنامل من الثلج مسّد ريش الطائر الملون بالاحمر والاخضر والبرتقالي ، مسّد الثروة المعبأة في الخشب .

وهم نازلون من رابية ، لاحت دكاكين السوق كعلب هندسية بيض ، أبعادها ضباب وحدود زواياها مطر ، سيُغرق بيوت الفلاحين وثوار الجبل وذيول البغال ومجسّات العناكب المتخفّية تحت البَرَد . في السوق وفي المسالك الجبلية المتنافرة او المتقاطعة ، عند ضفاف النهر والوديان وبعيداً في السماء عند حافة القمم ، كانوا يرون بغالاً تسير ورجالاً مسلحين ، مهربين ومشردين وباعة ومخبرين . الكل في الجبل . والجبل عملاق متمرد عمره ملايين السنين . الاسواق في الجبل محطات انتظار ، والرجال قطارات سائرة الى منافيها ، لا احد يعلم من اين تجيء ولا أحد يدري الى أين تمضي .

عيونهم تعلّقتْ في السوق ، في بغاله وبضائعه وحركته التي

لاتركن لحظة وهم يسيرون حذرين . الطريق دَبِقٌ والنهر طائر ملوّن والامطار في القمم خيوط ابريسم وحرير ، وكانت امامهم ثمت قنطرة قادهم اليها الطريق .

– يبدو جائماً . ألا ترى كيف ينقر قضبان القفص ؟ قال علي .

– لا ، أنت واهم . انه يريد الهرب من أسره .

كانت القنطرة بوابة السوق ، مدخله المحاط بالسمّاق والحور والصفصاف والبنادق اللمّاعة بالزيت والقوة ، عمودان من شجر السنديان مُدا بأستقامة وأمسكت بهما أخشاب مسطحة عَرَضية محكمة الرصف ثبتت بمسامير سوّدها القِدم وملامس الاقدام ، وتستغيث كبغل يحشرج . هَمدَتْ ساكنة عندما اجتازها حامل القفص وقد التفت اليها باسماً :

– أمس قال لي أحد الثوار أن البارزاني تعثّر به حصانه فوق هذه القنطرة ، ذات يوم وكاد يسقطه في الجدول .

– اذن نحن نسير على نفس الطريق ؟

قال علي محملقاً بثلاثة بغال واقفة جنب الطريق ، محملة بأكياس الخيش . ثلاثة بغال كانت تحمل السجّاد والاقمشة ، البنادق الشاهنشاهية المصادرة ايام الثورة ، طناجر الطبخ وهموم المهربين المدبوغة بالمسالك الوعرة وملاحقات الربايا العسكرية والرسوم الجمركية التي فرضها الثوار . كان المهرّب الكث الشاربين ينتصب كتمثال ميديّ عمره مئة الف سنة ينتظر دوره للعبور . وتساؤل علي ذاب بلغط السوق المتصاعد كالخنشار وترسب في ثنايا أخاديد التمثال العابر على القنطرة ، ذ لاشيء يُمسك في الجبال . هذا ما أخبرته به الايام الماضية . الرجال كالغيوم والافكار عوالم أميبية تختبيء وسط انسجة الصخور وتتسرب نحو الرطوبة . وليس من حقيقة متجلّية مثل طائر القبج . كان يرفع رأسه

ويحدّق في الافق ، تأخذه التماعات برق متشعب يلتوي على القمم وتبهره شرايين نور متفجرة على حافة غابة البلوط أعلى الجبل المقابل . المهربون يلكزون بغالهم مسرعين . الثلج في الأفق . التجار يربطون بضائعهم لتظلّ في منأى عن البلل . المطر في الأفق . ومن الرعب وضجّة العاصفة غير المسموعة لبني البشر كان الطائر يهز جناحه ويفرد ريشه ويصير ذا منظر مقرف . علي مطر ، مصطفى مطر ، حامل قفصه بلورة ثلجية ، بلورة من مطر متجمد . الدليل الناطر في مقهى السوق مطر ، كلهم مطر ، هكذا يراهم القبج بعينيه المدوّرتين ، ثمرتي النبق ... هكذا يراهم .

– تلك هي المقهى حيث ينتظرنا الدليل .

انكفأت الأبصار عن البضائع والخيم والبغال والثوار وأوراق البلوط المسننة الساقطة من صيف ماض ، وصار فم مصطفى محور طاحونتي هواء تدوران في ريح عاتية . فالعيون تنشد المقهى التي أشار اليها ، المقهى المطلة على السوق والنهر . أعمدتها سود وبابها خشب عريض ، تدلّت نحوه اغصان من البلّوط والعليق والعفص .

– نعم هناك في طرف السوق .

كان مصطفى يؤكد وهو سائر أمامهم باتجاه المقهى ذات الاعمدة المحترقة . ثلاثة مقاعد خشبية وضعت في الفسحة الضيقة الموحلة ، اثنان منها فارغان واستقر على الثالث رجل بملابس كردية ، خشن الشعر بارز العظام معقوف الانف ، يراقب حركة السوق والنهر بعينين مليئتين بالاحلام .

– هذا دليلنا .

همس مصطفى اليهما ، لاعقاً قطرة باردة تدلت على فمه ، فأيقن علي ان ما يجري حقيقة وليس حلماً . سينتهي كل ماسلف من حياته ، تنتهي روعة أول يوم وصل فيه الجبل وتتلاشى الاندهاشة الفخورة

مرأى رجال يحملون البنادق ، اولئك الذين التقاهم بعد ساعتين من دخوله عالم الجبل . لكنْ حدث هذا قبل شهرين . وشهران في الجبل كافيان لأن يتحول الانسان مئات التحولات طالما له الاختيار . ومادامت الرحلة ستبدأ الآن ، فما عليه الا أن يطوي قلقه كما تُطوى الشراشف ، ويودّعه في مقهى . يبارك هروبه ويصلي عليه صلاته الجنائزية في ملكوت الجبال وتين البري وغابات السنط . وبعد سنوات سيعوي عواء الثعالب جائعة ، فالرجال كالغيوم والافكار عوالم أميبية وسيسير الى منفاه ، هو ومصطفى الذي أقنعه بالرحيل . كان ذلك في أمسية مقمرة عند سفح سوس الملامس للسماء .

– فكرت انكما لن تأتيا . أنا هنا منذ نصف ساعة .

– كان الطريق موحلاً ونحن لم نألف مشي الجبال ، أنا وعلي .

وبعد أن ركن حامل القفص طيره الى الجدار الغرانيتي ، أخذوا أماكنهم على أحد المقاعد ، ، وطير القبج ينقّل عينيه بين احذيتهم الملطخة بالوحل والجليد .

– قلت لي أمس انكما اثنان . همس الدليل لمصطفى .

– مجنون . يريد مرافقتنا الى سردشت لبيع طيره .

– ولم لايبيعه هنا ؟

– يقول ان المدينة تدفع اسعارا خيالية لـ(طير مدرّب) مثل طيره .

ضحك الدليل ورماه الطائر بنظرات متفحصة من داخل القفص . كان القفص مخروطيا أدخل تصميمه الاعجاب في قلب الدليل الذي ارسل طالبا لهم الشاي والبسكويت . عفونة المقهى تسري في الجو حاملة رائحة صوف الخراف وجلود الحيوانات الملقاة على الارض والارائك . يدخل بضعة رجال مسلحين بالبنادق الرشاشة ، يعقبهم آخر حاملا بندقية برنو يتصالب على جسده الناحل حزامان مليئان بالطلقات اضفيا عليه مظهرا

مرعباً .

– سنصل سردشت اليوم ، اليس كذلك ؟ تساءل علي .

– بشرط ان تسيروا بهمة .

– هذا اذا كان الطريق آمنا . أكد علي للدليل .

– ولماذا لايكون آمنا ؟ قال مصطفى .

– فعلاً لماذا هو غير آمن ؟

على السفح المقابل يزحف غيم دخاني متكاسل ، يلحظونه من هنا ، والطريق الذي قدموا منه صار بارز الملامح وسط ضوء رصاصي عجيب كلّس منظر الجبل والنهر والسوق وأكسبه هيئة شاحبة فاقدة الحياة . الغيوم الدخانية ترشّ المطر . في البدء نزل نثيثا ناعم الملمس ثم همى بقطرات متلاحقة . انه يبلل شجيرات السمّاق وترتعش البغال من وقعه على جلدها .

– لكن على اية حال ، خاطب حامل القفص نفسه وهو يهز رأسه ويرقب القمم ، في الجبال ، جبالنا هذه ، تبدأ بمطر خفيف وتنتهي بكارثة . الحق اقول لكم . وتناول قفصه بين يديه وحدّق الى الطائر باهتمام .

– اليس كذلك ياصغيري ؟

– لنمض الآن . علي الرجوع غداً الى هنا .

عند خروجهم الى الطريق ، رمى الطائر جدار المقهى الجرانيتي بنظرة صفراء ، وأخذت اصوات السوق تخفت في آذانهم . صارت صدى سائراً نحو تلاشيه . ووراء تلة تشبه بيضة عملاقة لم يبق سوى دوي النهر الهادر ، ووحشة الجبال المحيطة بكهوفها وجحور حيواناتها ، بعيون المياه وجثث حيواتها البشرية . بانت في الطريق الضيق المحصور بين حافتين ، قوافل صغيرة تتأرجح مع الطريق صعودا ونزولا ، وتصاعدت في الجوار رائحة لنرجس مفتت وعليق متفسخ مطمور تحت الثلوج المتخلفة

في الظلال ، شبهها عليّ برائحة عروق النخيل المبتلّة بالمطر او تلك المدوّمة حول السواقي الملأى بالطين والأشن .

– رحلتنا ستكون شاقة .

بدد الدليل صمتهم المُرين ومحا وحشة الجو ، تلك التي لاتفهم .

– ليس هناك من طريق آخر . قال مصطفى .

– يمكن انتظار الصيف على الاقل .

– الصيف القادم ؟

– لكنك لست الوحيد .

اثار عليا هدوء الطائر الاسير ، هدوءه المتأمل برحلته الغريبة هذه ، رحلة الليالي دانية النجوم والجبال المسكونة بالاصوات والاشباح والبنادق . عيناه المختبئتان في تلافيف فروة صاحبه العابقة بالنتانة ، مثارتان . عيونهم محاصرة بالقمم والمرتفعات العاصفة فيها الريح . في السماء يشعّ جبل قنديل ، في الأفق كرات من الثلج وعند المنحدر ذلك النهر الذي صار أقرب فأقرب . ينحدر الطريق ويقترب النهر . تقترب الصراطين الجبلية وطفيليات المياه العالقة بالصخور وفضلات الاسواق ومقرّات الثوار وخرق الـورق . ومن هناك ، فوق شجرة جوز ضخمة ، غرّد دوري لحنا حزينا وصوصأت عظايـا من مكمن سـري اهاجها اقترابهم الطاريء ، ونقرات المطر على التلافيف الصلدة الموشاة بالعيدان وخيوط العنكبوت ومزق الملابس . حدثهم الدليل عن الشجرة وقال انها كانت مقرا لفصيل من الثوار ، أسفلها خيمة ينامون فيها أو يعقدون اجتماعاتهم .

كان ذلك في الصيف . أجل . قال الدليل وهناك المطبخ ، جدرانه مسودة وبقايا الخشب مكومة امام الباب .

– اين هم الآن ؟

سأل عليٌّ الدليل المنغمر بالحديث والذكريات وأحس برغبة جامحة في الذهاب الى الشجرة .

– هذا مقر صيفي ، ربما ذهبوا الى مكان اقل انفتاحا على الريح وربما اقتربوا اكثر من المدن . لا احد يعلم .

– عن اذنكم أريد افراغ مثانتي ، استمروا .

مال علي عن الطريق متجهاً الى شجرة الجوز . غابوا وراء منحدر صخري وشعر أن روحه طليقة اكثر من ذي قبل . اقترب من الشجرة متأملاً ما تركته الايادي من الخدوش والكتابات المحفورة بالمُدى او سناكي البنادق على ساقها . قرأ على الساق : صيف جميل ، رأسي او النصر ، لينا وجوهر ، بغداد والحلة وبعقوبة ودهوك ، قُصفنا قبل ساعتين التوقيع : ثائر أحمر . وفي الاسفل قرأ بيتاً من الشعر : عيناك نافذتاي ، النصير أبو الوطن . لاشيء يُمحى ، هكذا فكّر . لماذا لايكتبون ذكرياتهم على الصخور العملاقة ، فالاشجار تموت ، يأتي عليها زمن تنحلّ فيه الى شظايا خشب . لكن الصخور خالدة خلود الحياة . كان يمكن له حمل صخرة حادة لينقش على الساق بعضاً مما يخصه ، لكنه اعتبر ذلك تزويرا للحقيقة .

بعدما غادر المكان ، كانت الامطار تغسل الذكريات في الساق الغليظ وتجذب الى عظامه برودة الصخور وجفاف البلوط .

– تأخرت ؟ سأله مصطفى .

– يبدو متعباً و ... قلقاً . قال الدليل محدقاً بوجه علي .

– احسست بألم في داخلي . ردّ علي وعيناه تعومان في الوجوه والصخور المبتلّة .

– لكن ... ...

قبل أن يكمل حامل القفص كلامه ، تدحرجتْ صخور صغيرة من قمة الجبل وسقطتْ في النهر بوقع ارتطام ثخين ، ثم بعثرت

المياه المتجلّدة وراء حافة النهر وقفزت بعض منها الى الهواء ثانية كما لو أن شخصاً قذفها من القاع . أجفل علي ومصطفى مذعورين وأطبق حامل القفص فمه ورفع الجميع رؤوسهم الى الاعلى ، حيث الحافة الاخدودية ، شجر كث وبريق توحي به الثلوج . كان عَنز الجبل ينـدسّ بين صخرتين ، خيط حريريّ أسود يتأرجح في الفراغ لايمسك به سوى بوزه المندس وسط أعشاب الصيف الجافة . خالوه سيسقط في الهاوية مثل الغصن ، لكنه طالعهم باصرار ، طالع القافلة ذات المصير الغامض ، مضغات اللحم الباردة ، قطارات الجبل المرقّش بالقتل والمخاطر .

– يريد قتلنا التيس الملعون . صاح حامل القفص .

– ميتة جميلة ، هه . قال مصطفى .

بالقرب منهم لاحظ الطير سرطانا كبير الحجم يلوذ خلف صفصافة ، وفي القمة لاحظوا التماعة نار تتقد . نار متأججة تحت مظلة شجرية يجلس قربها راع ، كان ينظر هو الآخر اليهم ، يحدق فيهم مثل عنزه الحريري ، سابحاً بين غيوم ناره التي من دخان وعطر .

– قبل أشهر قُتل احد الانصار بهذه الطريقة .

قال الدليل ، وتوقف حامل القفص واضعاً قفصه على الارض ، فتح الباب الصغير وأخرج الطير ووضعه في حضنه ، اغترف حفنة من المياه وادناها اليه .

– يجب ان لا يعطش انه كنز .

– انظروا ، الثلج يسقط .

هتف علي مشيرا الى الثلج وهو يهوي بين قمتي الجبل المحيطتين بالممر ، وكانت عينا مصطفى يلوح فيهما الأخفاق ، ولم يلبث الجميع ان تواروا خلف افكارهم ، وليس سوى خطاهم تتلاحق بهمة . خطى تستطيل كنتوء صخرة ، خطى لها شكل نصل مصوّب سيطعن الجبل وينفذ الى الاعماق ، حيث الظلام البارد واللارجوع .

اعترضتهم بغال في منتصف النهر الضحضاح ، حوافرها تقرع القاع بقسوة ، خمّن الدليل انها قادمة من ايران ، وآمن علي اكثر من السابق ، ان رحلته ستكون رحلة العمر . وبمواجهتهم برزت قمة جبل منعزل عن جبال الممر ، سالت منها السنة صخرية أوشكت على ملامسة النهر ، تخللتها مهاو سود وأخاديد وكهوف مثلجة وسكون وشجر يتدلى مقلوبا كنبات البقدونس . صمت يوحي بالصمت ، فأحسوا وكأنهم يدخلون ملكوتاً طاله سحر عظيم . ملكوت صخور مقلوبة وأشجار عتيقة صارت سيقانها ملاجيء للحيوانات والصيادين . كان النهر وكأنه يفور من قاعدة الجبل فليس يبصر أي مسلك ، تلاقت الجبال وأطبقتْ عليهم ، اين يقود الطريق اذن ؟ لا احد يعرف هذا سوى الدليل الممهور بالرحلات وخبرة الطرق وسريان مابعد منتصف الليل . سيبتلعهم الجبل مثلما المطر وثمار الجوز وذكريات الثوار وعظام الآدميين المتخلّفة عن والحروب . ليس ذلك بمستغرب كما أوحى الصمت والانغلاق المضروبين في الممر لعلي . شعر انه مهزوم فتكور كبلورة صلبة من الثلج . تسللت بلورة الى القفص ، نقرها الطائر بشهية وهوت أخريات في شعر مصطفى ، ضحك وغارت عيناه التتريتان بوجهه فقال بسخرية :

– وهكذا بعد عشرين سنة ليس أكثر ، أكون عاجزا عن تصديق ذكرياتي . أحقاً أنا مصطفى ، قطعت هذه الجبال مشياً على الاقدام ؟

– وماذا في ذلك ؟ سأله الدليل ثم تابع كلامه ، هل رأيت حملة البنادق ؟ قطعوها عشرات الممرات وكتبوا على كل شجرة أو صخرة ذكرياتهم ، كتبوها بالدم . أجل كلمات من دم يامصطفى .

قبل أن يدخل الطريق في أحشاء الجبل المنفرد ، باب الممر المسحور ، انفتح فجأة بعد أنعطافة حادة سهل قاسم رش الفسيح العاج بالعطن والبارود وصهيل البغال ، ودهش علي من ضخامة السوق ، وتبادر

الى قلب حامل القفص انه لو يبيع طائره هنا وينتهي من الرحلة .

– هنا كل ما يخطر بالبال ، بدءاً بالنقود المزورة وانتهاء بصواريخ RBG التي تباع كالبطيخ . قال الدليل .

وبعد صمت طويل قال مصطفى بصوت خفيض :

– لو نجلس مع تلك الجماعة نتدفأ ، ثم نسير بعدها .

وافقوا على اقتراح مصطفى واتجوا صوب نار جلس حولها نفر من المهربين والتجار ، كان احدهم يضع بندقية صيد في حضنه ، يرقد جنبه رأس ثعلب شعره اشقر . تحلّقوا حول النار ، وكان دخانها ينعقد فوق رؤوسهم بانتشار بطيء . ألسنة افعوانية عطرة حاصرتها الرطوبة والمطر ، تسيل مثل غيمة نحاسية . ببطء ... ببطء . تخرج من كومة خشب الصنوبر كما لو شُدَّتْ الى الارض والرؤوس والحصى المنتشر على الشاطيء . الحرارة تفحّ من الدخان واللهب ، تتناثر على الامكنة القريبة والوجوه المحمرّة والايادي النافرة العروق ، دفؤها الجبار يسخر من الغيوم والمطر ، ويذيب بلورهما المتصلّب ، يهوي به في المسامات حول الحصى وبقايا الطعام وأعقاب السجائر .

– هل تبيع جلود الثعالب ؟ سأل حامل القفص الرجل ذا البندقية .

– كلا انه قناع البسه حالما أكمن للصيد .

– أتسمح ؟ طلب مصطفى القناع من الرجل الصيّاد .

– تفضل .

تأمله مصطفى بدقة . قلّبه من جانب الى آخر . عيناه الأبنوسيتان بدتا كما لو رسمتا بالحبر . لبسه مصطفى فصاح الصياد بانشراح :

– اصبحت تشبه الثعلب .

رغب مصطفى في لطم الصياد الوقح ، الا انه التزم الصمت

وانصرف ذهنه الى الثلج المتساقط بخفة فوق الجبال والقناطر العتيقة والسوق . كان الثلج يطفيء في الدخان شراراته المتصاعدة كالشهب ويزيل بقع السواد عن الارض الخلاء ، تلك التي احرقتها شموس ايام فائتة . خائفاً ، منكمشاً ، كان سوق قاسم رش ، مستوراً بالجنفاص واكياس النايلون المسدلة على البضاعة المفروشة امام الدكاكين وسقائف الخشب . تلملمت البغال بعضاً على بعض ، رقصة متوائمة تضيق حلقة راقصيها لتقتصر على ارتجاف جلودها المبتلة ، وقد علقت بها نشارة الخشب والقراد وعيدان من القش والكبريت .

– أخي الثعلب هات القناع من فضلك .

كظم مصطفى غيضه ثانية ، وناوله رأس الثعلب وتابع الصياد حديثه ناهضاً :

– فأنا راحل .

– ونحن كذلك . اصبنا كفايتنا من الدفء .

قال الدليل وتفرقت العمائم الكردية التي كانت متحلّقة حول النار منتشرة في السهل ، مضتْ في الجبال او الى السوق حاملة دفء جلستها ، تاركة جمر الصنوبر جمراً مطفأ لم يزل يحمل عطره الشذي . كان الصياد يحمل رأس الثعلب بيده اليسرى ، وعلى حمّالة البندقية يضع اليدى الأخرى ذات الشعر الكثيف ، وصفّ من الاطلاقات الحمر يطوّق جسده الممتليء . سأله علي :

– هل تريد عبور الحدود مثلنا ؟

– انا ذاهب الى جبل مانيموس ، ذاك الذي أمامنا . أشار الى الجبل المقابل للطريق ، الجبل المكلل بالاشجار العارية وكان يطل على السهل بوداعة تنافي اصطخاب الثلج ودوران الغيوم المشعة بالبروق ، في السفح ، وسط تلك الغيوم يرقد وليّنا مانيموس . لقد وفَدَ قبل مئات السنين الى قرانا من بلاد بعيدة ، يقال أنه مسيحي . عندما مات بكاه

فلاحو كاني زرد وشينة وبيوران كما يبكون أولادهم الموتى . كان يحبهم ويقف بوجه ملاّكي أراضيهم ، وقد سُمي الجبل باسمه حين دُفن فيه حسب وصيته .

– تبدو أشجاره كثة .

– فعلا . اذ لا احد يجرؤ على الاحتطاب هناك .

ارسل الصياد عينيه في الافق ، نحو القمة المشجرة ، حيث القبر حامل الأسرار ، القبر الذي ظل ، منذ أمد طويل ، يوزّع قداسته على النفوس والاشجار والحيوانات . وبعد مسافة قصيرة نفض الثلج المتراكم على قناعه ، ومسح حمالة البندقية وقال لهم فجأة :

– أتمنى لكم رحلة طيبة . سأسلك هذا الطريق .

انعطف نحو متاهات جبل مانيموس مبتعداً عن الطريق الرئيسي والنهر ، وقاده طريقه الى أجمات أثيثة من العفص والاسبندار والتوت البري وسروع العنب التي على هيئة عظام ملتوية . هناك ، تمثلته منعطفاة الجبل وانكساراته فذاب ، وذاب معه الطريق والوحل والبندقية والقناع الثعلبي وسط اعصارات الهواء المدوّية والصفير المتصاعد بنفور والذي غلّف كل شيء بانتقام ووحشة .

– من سنين خلت ، قال الدليل بعد انصراف الصياد ، اجتمع الثوار القادمون من مدن العراق في قمة جبل مانيموس ليعلنوا الثورة في الجبال ، وظلوا طوال الليل ساهرين ، واستهلكوا عشرات الاطنان من الخشب . انني اتذكر ذلك الليل بوضوح ، وهو ماثل أمامي ولن أنساه .

– يبدو مغفلاً اذن ؟ قال مصطفى .

– أهو عراقي أم ايراني ؟ تساءل علي .

– من يدري ؟ عند الشريط الحدودي تختلط الاسماء تماماً .

وبصروا الثلج وقد ارتدى شكل عاصفة غير معهودة

* * * *

ثلج ثلج ثلج . من يصدق هذا القدر من الثلج .

ثلج في قمة الجبل ، ثلج في السماء الرصاصية ، ثلج في الانوف والآذان وخلل الشعر . انعكاسات ثلجية وثلج كالكرات كالجبال ، الجبال كتلة من البياض ، والبياض روح هائمة كروح علي المسحور بما يرى غير المصدق ما يرى . منبهراً يقف في القمة وأمامه قرية بيوران بذرة سوداء في تربة قاحلة ، نقاط سود متراصة او مبعثرة ، مدى لا انتهاء له واشجار ليلكية مبقّعة كأسراب غربان مرتجفة .

خلف علي يمشي حامل القفص متعباً وبره ابيض وشعره أبيض وفروته بيضاء ، وقفصه مكلل بالثلج ، ولايملك الآن أي اهتمام به بسبب العاصفة . امتزج جسده بالفراغ ووهدة الجبال ، يشدّه تعبه الى الخلف فيسحبه الهواء العاصف الى الخلف ، ينسرب الى القعر الجبليّ بين حطام مخلوقات سقطتْ من ملايين السنين وحلمها الوصول الى القمة ، لكنها لم تصل لحد الآن .

– من هنا ، قال الدليل الواقف أعلى الجبل ، يعود بنا الطريق ثانية الى الوطن .

نظر علي حوله ، نظر الى الدليل ، لاشيء سوى أكداس البلّور ، دموع العاصفة المتخثرة المنزلقة الى الجبال . ليس ثمت طريق واضح ، ليس الا الفراغ المحيط ومصطفى المصاب بالبلل والسفح المتحدّر نحو القرية ، قرية بوران .

على السفح ظهر اول كوخ من أكواخ القرية ، كوخ جعل علياً يهوم بالدفء ، وراحت أقدام مصطفى المتكاسلة تنبعث فيها ثانية حرارة الوصول والراحة . الاقدام الهاربة من قيامتها الخاصة اندفعت هابطة من السفح نحو غابة الاسبندار والحور المجاورة للكوخ . جنب ثلاث شجيرات مزهرة بأوراق الجليد الهندسية التكوين ، كان الدليل يلقي درسه

الخاص ، تعاليمه المختزنة في أربعين دائرة مجوّفة هنّ عمره كله :

- نحن هنا في بيوران ، وهي محطتنا الاخيرة قبل سردشت .

- سنبيت هنا سنبيت هنا . هتف حامل القفص بعجلة .

- فكرة جيدة . قال مصطفى .

- لكن اذا سقط الثلج فسوف تُسدّ الطرق حتى يذوب .

- ومتى يذوب ؟ تساءل مصطفى .

- في الربيع .

وهم وقوف في غابة الاسبندار ، شخصت اليهم عينان صفراوان من بين قضبان الخشب وكومة الثلج القميئة . عينا طائر القبج اللتان لاترفّان بل تحدقان باصرار . شاهدهم الراحل الى الاعلى في سماء الجبال دون ان يلحظوه . كرتان من البرتقال أسقطتهما العاصفة في سلّة الموت . كان الطائر يسخر من كل ما حوله ، من الاسبندار المتطاول في العاصفة ، من الرجال وأصواتهم المبحوحة ، من القرية والمنحدر والكهف . انتهت رحلته ومعها أطياف يوم كامل ، مرّت به وهو راقد بين دفتي نتانة الخراف .

- سنواصل تذن . قال مصطفى .

- تمهل يامصطفى ، ستقودنا الى الهلاك .

قال علي محتداً وهو ينفرك أصابعه طلباً للدفء . كانوا يحيطون بالدليل ليسمعوا كلمته الاخيرة .

- هناك مقهى صغير في القرية ، تعالوا لنذهب اليه .

توغلوا بين شجر الاسبندار والحور ، ورسمت أقدامهم درباً واضحاً في الارض . شقوا القرية الى نصفين . لفّوا وداروا متوغلين بين أكوام حطب وأغصان جافة وقش ، مغطاة بالنيلون ، ومرّت عليهم أكواخ واطئة وأشجار بارزة الجذور . سمعوا خوار أبقار يأتي من العمق ، حيث ترقد حظائر الفلاّحين الملأى بالبق والنتن . وعبر خياشيمها الحديدية

كانت المداخن ، وهي الوحيدة التي تنبيء عـن وجود حياة بشرية حولهم ، ترسل دخانها الازرق الخارج من الفة البيوت محملاً بروائح الطعام وأجساد القرويات ، وأحلام أطفال مزّقتها العزلة وانتكاسات حروب ماضية . وثمت ، من بين كل الخياشيم النافثة للعطر والاحلام ، كان هناك واحد فقط مميّز للدليل ، فقادهم نحوه . في فضاء القرية حوّم غراب بغتة ثم ابتلعته الثلوج ، ونبح كلب نباحا مسعوراً ، بعيداً ، وكانت أبواب البيوت تقطّر ماءً ينحدر برتابة الدخان . عند وصولهم ، رأوا باب المقهى محاطاً بعتبة ثلجية عالية ، انتشرت حولها آثار حيوانات ذات اظلاف وأخر من ذوات المخلب . دفع حامل القفص جسده الى العتمة ، الى الدفء والفراغ المشبّع بالنفتالين والاحتراق ، واندفع الجميع خلفه . داخل المقهى كان شيخ يدس البلوط في الاتون الملتهب . حزمة من البلوط ، شواء ورائحة وتحلل خشبي ، حزمة سنيً امتزجت بدهشة العجوز وترحابه البالغ . اجلسهم حول المدفأة المثبتة وسط المقهى وتراجع الى افريز من الطين ، رُصفت عليه كؤوس نحاسية منقوشة بالزهور والكروم والثمار الجبلية . على الافريز قطع من السكر وأقداح وبضائع غطاها الغبار وبصمات من مروا قبل عقود خَلتْ ، ولا يستطيع تميّزها سوى العجوز . تناول الابريق ووضعه على حافة المدفأة ، فتناثرت القطرات الى بخار ودخان حار ، راح لهما حديد المدفأة يقضقض بصـوت مسموع .

– من أين قدمتم ؟

– من ممر ناوزنك . أجابه الدليل .

– المهم وصلتم بسلام .

العاصفة رهيبة يا خال . قال علي .

– نريد بلوغ سردشت قبل الظلام . قال الدليل .

– طريقكم شاق اذن .

سكت الشيخ واجال بصره في وجوههم ، وعندما وقع على القفص ، أشار الى حامله قائلاً :

- أرى هناك طيراً .... لماذا لاتخرجه الى الدفء ؟

- آه ... نسيت .

خلع الفروة وفتح الباب الصغير . دس أصابعه الغليظة في الريش . البرودة قاتلة ، فاجأته كلسعة عقرب . صار الجسد جاسئاً ، شاهداً من الخشب ، فلم يصدّق . تناوله بحذر . كانت العيون مشدودة اليه ، الى تعابير وجهه المتقلص . وحين وضعه جنب المدفأة ، مال على جانبه وتداعى كالفخار .

- مات طائري المسكين !!

ادناه من فمه وغطّاه بالقبل ، ريشه وتاجه وقوادمه الملّونة ، أنهال عليه وهو يصيح :

- كان ثروة ، ثروة كلفتني عذاب يوم من العواصف والثلوج والجوع . طائري الجميل ، انظروا ريشه أتجدون أجمل منه ؟

- لاتحزن يابني القبج كثير في الجبال .

واساه الشيخ الهازيء من الموت ، العارف بالدروب والجبال ، بالطير والحيوان ، الذي عمره لايعد .

- لكنه مدرّب ياجدي .

- كل من عليها فان .

وتناول ابريق الشاي وسكب لهم في الاقداح النحاسية كما تسكب الخمرة ، بتؤدة وترو .

- راح تعبي هباء .

- في هذه الانحاء يموت المئات يوميا وهم بشر يابني . لا أحد يحزن عليهم مثل حزنك .

- انتهت رحلتي ، قال حامل الطير الميت ، منذ الصباح ، بل

منذ الفجر والهاجس يلعب برأسي ، كان يقول لي : انها رحلة مشؤومة ، انظروا هذه نهايتها .

– منذ سنوات ، قال الشيخ ، لم يعد أحد يهتم بمثل هذه الاشياء .

– على اية حال ، لم يبق امامي سوى الرجوع .

* * * *

الثلج خيوط تفتلها الريح ، تلقيها الى أعماق أبعد هوّة في الارض ، تكدّسها أمام بيوت الفلاحين وعتبات حظائرهم . وفي الريح التي تفتل الثلج ، في الآثار العميقة المندفعة نحو الجبال المتخمة بالاسرار ، لمح الشيخ الكارثة . لمحها بحكمته ، بسنواته التي لاتحصى . شبحت عيناه الى الاشجار القريبة المصطخبة الملتفة وسقط في التأمل مبحراً في خضمّ خبرته ، مقلباً أفكارا في رأسه ، مطبقاً اصابعه . وبصوت مسموع ضعيف واهن تمتم لحامل القفص ، وهما واقفان عند الباب .

– كان عليهم المكوث هنا ، فقريبا سيحلّ الليل والطقس سيء .

وفي لحظة انقباض قلبه من الحزن ، غابت ملامح الرجال الثلاثة عنه ، وتلاشت ملامحه وحامل القفص عن الرجال وصارا عمودين من سحر مسوّد وذاكرة . ومن الاسفل ، أسفل القرية ، طالع القرويون ثلاثة رجال سائرين خلل الأشجار المعرّشة بالجليد المخرّم . تمتمت القرية مع بعضها البعض بخوف ، محدقة بالافق والعاصفة والافاعي الثلجية المنزلقة من السماء ، والسماء بحر رصاص أو رماد . كانت القرية المتمتمة خلف أكواخها الغرانيتية تحدّق بعيون مفعمة بالاستغراب .

– بمثل هذا الطقس ؟ بمثل هذا الطقس ؟

هكذا كانت القرية تتكلم ، وكان عواء كلب ، وكان غراب محوم فرّ من مكمنه خطأ ، وأبصره الدليل صدفة فظل يمشي بقلب قلق . مضى وقت التراجع ، فكر الدليل ولم تكف اقدامهم عن سحق الجليد والفتك بالطرق الهابطة والصاعدة ، الهابطة للذاهبين والصاعدة للقادمين . القرية تنسحب الى الغمر والضباب ، مفجرة خوفاً وعزلة وابتعاداً عما هو بشري ، بثّ أنسحابها فيهم انفرادية قاتلة . هزيم أفلاك وجَمدَ وعزلة . العزلة تسري في الدم . الدم عزلة متدفقة تكبر وتطال القلب ، تلتف كأفعى ضخمة . جعل على يفكر بطير القبج ، وحكمة الشيخ ، وتلك الامسية التي جمعته مع مصطفى عند جبل آسوس . سنرى مدناً حلمنا بها طوال حياتنا ، مدناً من ضوء ونساء ، وسنجرب حياة أخرى غير التي عشناها في هذا الوطن – العلبة ، كان مصطفى يتكلم آنذاك وآسوس مجلل باشعة قمر أزرق واضواء نيران الثوار . كم كان البقاء رائعاً ، تمنى ذلك من اعماقه ، من دمه الحازن للوحشة الملبد بالبرودة . تجمدت الكلمات وأتخذت شكل مكعبات صلبة لاتريد الانقذاف . لهاث ولاشيء سوى اللهاث ، وقامة الدليل تندفع أمامهم على طريق المدينة البعيدة . هبطوا في بطن واد عميق ، ثم صعدوا منعطفين الى اليسار ، فواجهتم غابة صنوبر ، ذؤابات أشجارها أختفت في الغيوم ، وعلى مسافة خطوات قليلة من الطريق ، وبعد أحد المنعطفات ، مرّ مهرب على بغل محمل بالبضائع ، ملابسه بيض وبغله ابيض ، ظهر فجأة من دون دلائل وغاب متجهاً الى العراق بلمحة قصيرة . صاح عليهم الدليل :

– إذا اجتزنا هذا الجبل سنصل بأمان .

أوغلوا في صعودهم نحو ذروة الجبل . بين الصخور كانت الريح تزمجر ، ريح في الاعلى وفي الاسفل ، وارتَدَتْ الكهوف والاشجار العارية والوديان المهجورة مسوح زوبعة . وأبعد من هنا ، ضَربتْ العاصفة بيوت الثوار الحمر وحمّامات الاغوات المعطرة بالمسك وعنابر السلاح في

المدن القريبة وتلال الألغام والهاربين من الحروب ، وفي القلب منها كان الدليل وقافلته محاصرين . الريح عارية والثلج اسود والارض برزت على حقيقتها ، وفي الجوار ، هياكل عظميّة من الاشجار وأحجار بوجوه بشرية وشعاب من المرجان البريّ المنشأ . ومصطفى يركض مشرعاً للريح وجهه ، يسارع خطوه الى القمة لكن لاشيء أمامه يمكن الامساك به او رؤيته .

– مصطفى اسرع بربك .

– .....

كان الدليل ينادي بصوت عال يخرج كاللهاث ، فيتداخل مع جلبة الريح وسط الهياكل الشجريّة والشعب والقرقعة . كان علي يسمعه جيداً .

– مصطفى الا تسمع؟ هل انت ميت ؟

لم يسمع مصطفى سوى اللغط والضجيج . في رأسه تدور افلاك لانهاية لها ، تأتي وتذهب ، تدور وتتصادم ، وأطرافه أقحوانة مهشّمة . أوتاره العصبية تمزقت ، لمحه على من السفح العلوي وقد صار ينوس في خطاه ، سكران وسط ضباب العاصفة وثلجها . ناداه مشجعاً وقد أحس بعطف طاغ يجتاحه .

– واصل يا مصطفى انها رحلتنا الاخيرة .

لم يكن علي يدري لمن كان يوجه كلماته ، فهو يؤمن أنها لن تصل مصطفى ابداً . مصطفى راح ينسحب الى الخلف منجرّاً الى ذراع قوية انطلقت من الوادي وتشبثت به ، الذراع التي من وهن ويأس . كان جسده من ثلج . شعره من ثلج . دمه وأطرافه من ثلج . حدّق الى الوادي والقرية المتوارية كحلم ، فاسترخت عضلاته كلها . احساسه بالنهاية كان يزهر في صحراء الوادي وذرى البلوط المتغرب وسط الصخور والجبال الذئبية النوايا ، وكان يسمع نشيد الموت المرنّ ، نشيده الصارم المحكوم بسماعه ، يملأ المكان ، فتقلص وجهه وصار لحاء شجرة جوز ،

وكفّ عن ازالة الثلوج المتراكمة منذ وقت بعيد .

قناع ثعلب وجبل يدعى مانيموس ، رجل حكيم بلحية بيضاء ، وطير قبج ميّت ، صخور مرجانية وبنادق وذكريات من دم ، حروب وثورات وأسماء مدن في بلد كبير سمّوه العراق . كلمات . كلمات . ماهي الا كلمات متوهجة تلتمع كالبرق . برق مشع يشعل الذاكرة المتشظية الى قطع ، وسيل من العصور والامكنة القديمة قدم الجبال أوحى له بالصراخ . فتح فمه فلم يكن هناك صوت . حشا فمه بقبضة ثلج ثم بصقها وكاد ان يسقط . سقط متعثراً بكثيب ثلج سدّ الطريق فأقعى على ركبتيه بهيئة المتوسّل أو المصلي ، وظلت الزوبعة تتعالى كالاعمدة وتتلوى كالقمع .

وصل الدليل الى قمة الجبل وهو غير مصدق ، كان يتوسط الغيوم وكان على هناك في الاسفل . كان الدليل يدرك طريقه جيداً ، اذ قطع هذه النواحي عشرات المرات وبعد قليل سينخفض بانتظام الى أسفل الجبل ، ثم بعد سهل صغير سيصل الى مدار المدينة . العاصفة لن تهدأ ، انه يدرك هذا ويدرك ان الليل آت ، ليل الجبل ، ملكوت حيواناته وفخّه القاتل .

- أنا ماض أمامكم ، سنصل ، سنصل .

قال ذلك ومضى هابطاً نحو السهل ، واحتوته خيوط الثلج التي نسجتها الريح ، صار لمصطفى حلم لا يمسك ، وها هو ذا يفتش عنه وعن علي بعينيه فقط . اذ ليس بمقدوره القيام بحركة أو فعل . عيناه فقط هما الأقدام ، هما الخطى ، هما الايدي . وفي هذه اللحظة تسامق عمود بنفسجي هائل ظلل قمة الجبل ، وبرزت منه تتوءات لا عدّ لها ، إندغمت وتشابكت بتفاصيل لايتصورها ، كتل مكورة متراقصة مشعة تدلّت امامه وتهاوت على الأرض دون ارتطام . لا شك ان واحدة من هذه الكرات العملاقة ستقع عليه وتسحقه مثل قملة . دهش دهشاً يفوق

الخيال واستجمع آخر ما لديه من تركيز ، محاولا ادراك حقيقة ما يجري حوله . ضيّق عينيه وافاق برهة من دخان موته ، فألفاه ، غصناً منجرداً من البلوط ، غصناً لا غير ، وأطلقت الارض حوله مرة أخرى غيوم نفتالين وأريج بلوط . اطبقت عليه مساحات مشعة هائلة ، ولآخر لحظة شاهد فيها غصن البلوط ، أحس جسده ينسرح في لجج مائية تعوم عليها جبال كثة الشجر ، شجر أسبندار مغطى بالرغوة وهو أخطبوط معفّر بنثار رخو .

– مصطفى ! اين انت يا مصطفى ؟

وقف علي متفرساً في الهاوية علّ مصطفى يصعد من الفراغ ، والفراغ رآه كرتين هائلتين محمولتين في أفق المنحدر . الافق كرات هندسية موسّقة على أذناب طيور مستفزة أطلقتها يد الجبل ذات الاصابع الصمّاء الغليظة .

– سيحل الليل يا مصطفى ى ى ى ى .....

وهجم الصدى من الاعلى والاسفل ، من الارض والسماء ، ضخماً مكوراً محمولاً على اجنحة طيور سود منفوشة الريش ،

– موو ... موو ... موو .. موو

صدى كالريش كان يتشتت على نسيج الصخور البازلتية والكرانيتية ، على صخور اليشب المتخفية بأرومات جبال مفتتة وأوراق صنوبر ، والسحب والحوافر وهياكل العظام التي من شجر وصخور ، لامس بخفة ريش ، كتلة الثلج المحدودبة الناتئة على جسد مصطفى المتكوّم في ظل غصن البلوط ، حيث لاظل هناك .

– أين أنا ؟ أين مكاني أين ؟

صوته خافت كان .

– الدليل ينبغي اللحاق به . لكنْ اين الدليل. أين أنا ، أين مكاني أين ؟ موسيقى من الصخب والجلبة حولته الى تمثال جامد . سُدت

منافذ عقله الملبد بالثلج والرعب ، لقد أصبح لايريد معرفة ماذا عليه أن يصنع . عرف أن مصطفى تاه ، واذا تاه مصطفى لن يمكنه الرجوع أو الوصول . أيرجع اليه ؟ محال . فصاح صيحته الأخيرة ، صيحة الوهن واليأس ، مخاطباً الجبال والليل القادم وجثة مصطفى التي لم تصبح جثة له الى الآن .

– كان يجب علينا البقاء مهما كان الثمن .

واندفع في بكاء غريب أحسه يتسرب من قلبه ذي التلافيف الافعوانية له حرارة الدم ، ذلك البكاء الذي ينطلق مرة واحدة لاغير ، سأبكي نفسي ، سنواتي الماضية واخطائي التي لاتغتفر ، وسأسير بلا دليل وسأنتهي واموت .

مشى دونما هدف سائراً الى القمة التي لايدري ما يأتي بعدها . كان الطريق ضيقاً ، الطريق المخادع الموصول بين الهاوية والغيوم . ومن حافة ظنها تقوده الى الأعلى ، هوى علي فجأة الى القاع . نزل كخيط من حرير . تلقفته الصخور باحضانها المسننة ، بمتعرجاتها المسننة وغاياتها الذئبية . رأى بيته المحاط بالنخيل والليمون ، رأى يداً صغيرة لامست وجهه ظنها يد اخته الصغرى ، رأى وسمع . سمع همس اصوات من الارض ، واستنشق رائحة دغل جاف وبلوط وجلود حيوانات وأمطار كانت تسيل كالزهور ، فأغلق عينيه المبتلتين بسائلهما الحار ، ونام بين صخرتين من صخور الجبل .

Die Eichein

Erzählungen

SHAKER AL-ANBARI

As-Sawt Verlag